حكايات عتيقة

أَسَاطيرُ النَّار
ذاكرةُ الهنديّ الأُمريكي
شجرةُ الخُبْز

(حكايات وأساطير عالمية)

إرمينيو ألمندروس

ترجمة: أحمد يعقوب

مركز القطَّان للبحث والتطوير التربوي
مؤسسة عبد المحسن القطَّان- فلسطين ٢٠٠٤

عنوان الكتاب:
حكايات عتيقة

تأليف: **إرمينيو ألمندروس**

ترجمه عن الإسبانية: **أحمد يعقوب**

Book Title:
Oros Viejos

Author: **Hermino Almendros**

Translated by: **Ahmad Ya'aqoub**

Editorial Gente Nueva La Habana Cuba: صادر عن

Publisher: A.M.Qattan Foundation	**الناشر**: مؤسسة عبد المحسن القطان
Qattan Center for Educational Research and Development	مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي
P.O. Box 2276 Ramallah – Palestine	رام الله – فلسطين
First Edition – 2004	الطبعة الأولى ٢٠٠٤
ISBN:9950-313-12-0	
Tel: +972 2 2963281	هاتف: ٢٩٦٣٢٨١ ٢ (٩٧٢)
Fax: +972 2 2963283	فاكس: ٢٩٦٣٢٨٣ ٢ (٩٧٢)

www.qattanfoundation.org

التصميم والإخراج الفني: أضواء للتصميم

الإهداء

إلى ابني أدونيس..
إلى الطفولةِ التي أمعنوا في الاعتداءِ عليها...!
إلى الطفولةِ كَيْ تحلِّقَ في تخيلاتٍ لا تنتهي
إلا بالإنسانيةِ الحالمةِ والمبدعة ..

أحمد يعقوب

تمهيد

في هذا الكتاب قصص منتخبة من أنحاء مختلفة ومتنوعة، وهي قصص أنتجتها الذائقة لشعوب كثيرة عبر رحلة طويلة من الخيال! وقد ترجمت هذه القصص من الإسبانية إلى العربية، وكان جامعها قد بذل جهداً هائلاً في جمعها من ثقافات إنسانية عديدة. وهي تعكس في جمالياتها ومحتواها تصورات للحياة والكون والقيم والمفاهيم والعلاقات ... وتتيح لنا أن نشغّل المخيلة كثيراً ونحن نقرأها.

وإذ نضعها بين أيدي المعلمين مترجمة إلى العربية، فإننا نتيح فرصة لتلمس غناها وسبر ما تنتجه من علاقات اجتماعية ثقافية روحية متنوعة، فهي تكشف لنا عن هذا المزيج الهائل والغني الذي يميز الثقافات الإنسانية على اختلافها وتنوعها. فميزة الكتاب أنه يجمع حكايات من الشرق ومن الغرب على حد سواء، وبذلك، فهي تشكّل مادة ثرية للمعلمين.

يأتي هذا الكتاب في إطار اهتمام مركز القطان للبحث والتطوير التربوي بالقصص في سياق المناهج المدرسية، باعتبارها مصدراً غنياً للبحث والاستقصاء والاستكشاف والتعبير بكل صوره وأشكاله، وبخاصة التعبير اللغوي. إن لدينا قناعة راسخة بأهمية القصص في النمو اللغوي، وقد اشتغلنا في المركز على تقييم القصص في الكتب المدرسية المستندة إلى المنهاج الفلسطيني الجديد، كما اشتغل باحثونا على توظيف القصص في سياقات تعلمية متنوعة، سواء في مجال اللغة العربية أم العلوم أم الرياضيات ... وأدركنا ذلك السحر الذي تبثه القصص في ثناياها وبأهميتها في عمليتي التعليم والتعلم. وضمن هذا الإدراك، فإننا نقدم مادة إثرائية للمعلمين مجسدة في هذا الكتاب كي ينهل منه المعلمون كلما ارتأوا ذلك ممكناً.

ففي هذه القصص حرارة تنطوي على خبرة إنسانية مكثفة وعميقة، وتنهل من عالم من الخيال، وتأخذنا إليه، وهي تتيح لنا استكشاف وجهات نظر مختلفة وزوايا متعددة، وقد أثبتت الكثير من الدراسات والتطبيقات العملية، وفي مختلف أنحاء العالم، أن القصص تشكّل مصدراً جوهرياً للنمو اللغوي والتعبير الكلامي ليس للأطفال فقط، بل للكبار أيضاً، فالقصص تمتلك طاقة تعبيرية هائلة متعددة الدلالة ومركبة العلاقات، ولكل قصة سحرها الخاص الذي يقودنا إلى عالمي الخيال والواقع، فنتحرك في كليهما ونحاورهما معاً. فلكل قصة طبقات من العلاقات ومستويات متنوعة من الدلالات والإيحاءات، فهناك ما خطّته القصة لغة وفيها مسارات لأحداث ووقائع، ولكل مبناها السردي الذي يميزها عن غيرها، ولها شخصياتها وما تتضمنه من رسائل، وفي كل قصة ما لم تقله، وهو لا يقل أهمية عما تقوله في بنيتها الظاهرية، وما يمكن استكشافه فيها، سواء أكان ذلك فيما يقوله السرد القصصي أم فيما لم يقله.

إن المتعة التي تحققها القصص لنا ولأطفالنا يمكن أن تشكل مدخلاً نوعياً في تحقيق غايات النمو التعبيري لديهم، ولذلك فإننا حين نضع بين أيديكم هذه القصص، فإننا لن نضع لكم وصفات في كيفية التعامل معها أو توظيفها، بل نتيحها لكم ونترك لكم خيارات التفاعل معها، فهي تشكّل مادة إثرائية نوعية يمكن لكم الإفادة منها بصور مختلفة، سواء أكان ذلك من خلال القراءة، أم الرواية فقط، أم عبر مقاربات تتجاوز ذلك إلى أنشطة تفاعلية، تنطلق من الانطباع إلى التحليل، فالاستكشاف، فالكشف، فالتعبير شفاهة وكتابة، فالتخيل، فالدراما، فالرسم، فالمناقشة، فالكتابة على الكتابة ... . فالتعامل مع هذه القصص يمكن أن يكون متنوع الأوجه، ومتعدد الطرائق، وأبسط ما يمكن فعله أن نتيحه لتلامذتنا كي يقرأوه، أو أن يناقشوا قصصه واحدة واحدة كما يمكن لكم أن توظفوا قصصه في أنشطة تحث على التفكير وتحفز على الإبداع، وأن تعقدوا موازنات ما بين ما تنتجه ثقافة وما تنتجه ثقافة أخرى، ليس من قبيل المفاضلة بل من قبيل استكشاف الخصوصيات وتنوع المصادر واختلاف الملامح، إضافة إلى المعالجات المختلفة للموضوعات نفسها.

ولا بد من التنويه في هذه المقدمة بأننا أجرينا تغييراً بسيطاً، ولكنه ذو دلالة كبيرة فيما يخص تعبير "الهنود الحمر" الوارد في الحكايات الخاصة بالأمريكيين الأصليين، حيث فضلنا تعبير "الأمريكيين الأصليين" حيناً واستخدمنا تعبير "الهنود" فقط دون إقرانها "بالحمر"، لأننا نعتقد أن هذا التعبير قد يحمل دلالة عنصرية، فهو تعبير استخدم من قبل الغزاة الأوروبيين لوصف سكان أمريكا الأصليين. ومن المفيد هنا أن لا نمر على هذا التعبير مروراً سريعاً حين نشتغل على هذه القصص مع تلامذتنا، بل أن نضع هذه المسألة في وعينا، باعتبار أن المصطلحات ليست بريئة، أو محايدة، وإنما تحمل في طياتها معاني ذات دلالة ثقافية، فخلف هذا التعبير أو ذاك، يكمن تاريخ طويل يعكس مواقف وآراء وتوجهات قد تصب في رؤية ثقافية ذات ملامح إنسانية، أو ذات ملامح عنصرية.

إننا في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وفي إطار عملنا البحثي، اشتغلنا على تقييم بعض ما تتضمنه الكتب المدرسية من قصص، كما أننا وظفنا القصص في كثير من الأنشطة التفاعلية التعليمية مع المعلمين، ووجدنا كم لذلك من تأثير إيجابي على خلق إمكانية نوعية في النمو التعبيري لدى التلاميذ، وليس فقط التعبير الكلامي، بل كل أشكال التعبير أيضاً، لذلك فإننا ارتأينا إصدار هذا الكتاب على أمل أن يشكّل إضافة نوعية يمكن للمعلمين أن يتعاملوا معه كأحد المصادر الطبيعية غير المصطنعة في عملهم التربوي.

وسيم الكردي

المحتويات

الكتاب الأول: ذاكرة الهندي ١١
الأزتيك ١٣
– حب البراكين ١٥
– إله الهواء والحياة ١٩
المايا ٢٣
– وردة مايات البيضاء ٢٥
– طائر الفوهوي ٣١
– أمريكا الجنوبية ٣٥
– جبل ايوان ٣٧
عذراوات الشمس ٤١
– الراعي وبنات الشمس ٤٣
– أويّانتي ٤٦
– الذاكرة الساحرة للهنود ٥٣
الأركانوس ٥٩
– كاوفوليكان ٦١
أرض الفضة ٦٥
– اسافي ٦٧
– المرأة والفهدة ٧١

الكتاب الثاني: أساطير النار ٧٣
أمريكا الشمالية ٧٥
نيوزيلندا ٧٩
اليونان ٨٥

الكتاب الثالث: شجرة الخبز ٨٩
اليابان ٩١
– العجوز غوارديان ٩٣
– اسوغاي المسكين ٩٧
الصين ٩٩
– حكاية إله الخزف والبرسلان ١٠١
– هروب الرسام "لي" ١٠٧

الهند ١١١
- البراهما والنمر وابن آوى ١١٣
- كيف نبتت شجرة الخبز في الهند؟ ١١٧
- حيوان النمس ١٢١

الكتاب الرابع: طفلة الثلج ١٢٥
أوروبا/ روسيا: ١٢٧
- "سينغورتشكا" طفلة الثلج
- اسفياتوغور والعمالقة ١٣١
بلاد الراين (Rhine) ١٣٧
- الفارس الأخير ١٣٩
- الطفلة العملاقة والفلاح ١٤١
- حكاية المحتال تيل ١٤٣
- لعنة الخبز ١٥٣
اسكندينافيا ١٥٧
- الملك الذي جاء من البحر ١٥٩
- كيف تشكلت جزيرة دي سي لاند؟ ١٦٣
- عبقرية الناس البسطاء ١٦٧
الجزر البريطانية ١٧٣
- حكاية وليم دي كلاوديزلي ١٧٥
- الفارس جيريان ١٨١

الكتاب الخامس: الطفل دان والوحش ١٨٢
إفريقيا/ بلاد النيجر ١٨٧
- سامبا غانا ١٨٩
- الأصيل ابن الأصول ١٩٣
- دان- أوتا ٢٠٣

مقدمة

حكايات وأساطير عالمية التي نقدمها هنا للطفولة العربية بشكل عام، وللفلسطينية على وجه الخصوص، هي نصوص في غاية الروعة والجمال. وهذه الغاية في الروعة تتأتى من جمالية مواضيعها، وثراء ثيماتها، وتنوع تواريخ حدوثها، وأمكنتها، ومصادرها الجغرافية، فتشمل القارات القديمة والجديدة.

تتحدث هذه الأساطير والحكايات عن شعوب الهنود في القارة الأمريكية، وعن التاريخ الشفهي لتلك الشعوب التي أبادها الاستعمار القديم، وكانوا قوماً لم يعرف الكتابة بعد، فتنقلنا حكاياتهم وأساطيرهم إلى الذاكرة الساحرة للهنود، عن تاريخ المكان ودلالته الأسطورية وربما فلسفته، كما عن معتقداتهم الغيبية وطقوسهم في الحياة، وتحدثنا عن الحب العذري، وعن الفروسية والبطولة.

وعن أساطير النار، فثمة إضافة تاريخية كبيرة في تنوع الأسطورة، فإضافة إلى الأسطورة الإغريقية المعروفة بأسطورة بروميثيوس، فإننا نجد هنا أسطورة من أمريكا الشمالية، ومن نيوزيلاندا، تتحدثان بسحرية فائقة ومخيلة طفولية خصبة.

وفي جانب آخر، تحدثنا هذه النصوص عن الهند، والصين القديمة، واليابان، وعن الحكمة التي وسمت شعوب تلك البلدان، وكذلك عن أفريقيا، وعن شعوب الفايكينغ والجزر البريطانية والأراضي المنخفضة (هولندا).

هذه المختارات من الحكايات والأساطير العالمية، جاء عنوانها الأصلي باللغة الإسبانية: "VIEJOS" وهي الجمع لكلمة ذهب، أما "OROS"، فهي الجمع لكلمة "عتيق أو قديم". لهذا، ستكون الترجمة الحرفية: "مجموعة ذهب عتيق"! وعندما أتدخل في الترجمة، فإنني أكتبها "كنوز عتيقة"، علماً بأن مفردة كنز باللغة الإسبانية هي: "TESORO"، وليست "ORO"، مع أن مفردة "ORO" تدخل في نسيج كلمة الكنز! وهنا يتضح مقدار تدخل المترجم في النص الأصلي.

حقاً إنّ هذه النصوص هي لقيا أثرية، بل إنها كنوز تاريخية، نقدمها إلى أطفالنا بكل المحبة والإخلاص، للمخيلة البريئة وهي تحلم بمستقبل أفضل.

أحمد يعقوب

الكتاب الأول:

ذاكرة الهندي

الأزتيـــك

مقدمة

من شواطئ الأطلسي الدافئة في الأرض المكسيكية، يمكن الوصول إلى الهضبة المسماة "أنهواك" (Anahuac) عبر صعود مجموعة الأدراج الحجرية في الجبال المحيطة بتلك الهضبة. وفي هذه الأرض المرتفعة والمحاطة بجبال جرداء تكسو قممها الثلوج، كان يقيم الهنود، السكان الأصليون، قبل وصول الغزاة الأسبان، فقد كانوا ينتشرون في هذه المناطق على امتداد غاباتها وجبالها المرتفعة حتى ذاك الوادي الكبير الذي يحتضن مدينة المكسيك اليوم، وكان المركز الرئيس لحضارة الهنود المعروفة بحضارة شعب الأزتيك العريق والمشهور جداً برجاله المكافحين، ذوي الكفاءة، وبطقوسه الدينية الحازمة.

وعند وصول الغزاة في القرن السادس عشر، كانت إمبراطورية الأزتيك في أوج ازدهارها، إذ كانت قد تمددت إلى أبعد من تلك الجبال، وقد زخرت البلاد بالقصور الرائعة المزخرفة بشكل جميل، وبالهياكل، ومعابد الحكمة المشيدة على شكل أهرامات، وبتماثيل الآلهة والحيوانات المقدسة.[1]

إن آثار تلك الحضارة لا تزال قائمة حتى الآن: آثار مدن، وبقايا معابد، وحكايات أسطورية وملاحم بطولية كشواهد على تلك الحضارة الأصيلة.

[1] الطوطم: حيوانات كانت تقدسها بعض القبائل والشعوب القديمة، وكان ينظر إليها باعتبارها أصل سلالتهم.

حبّ البراكين

كان لإمبراطور الأزتيك الجبّار سلطة عظيمة، ومدينته"تينوتش تي تيتلان" الكبيرة والغنية بالخيرات العاصمة المستقلة لأرض "أنهواك" الشاسعة.

أما القبائل والمدن الأخرى، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، التي نمت هنا وهناك بين الغابات، فقد كان شيوخها في خدمة الإمبراطور الأزتيكي، فكانوا يدفعون الضرائب، التي كانت تتدفق على "تينوتش تي تيتلان" عاصمة الإمبراطورية فتزداد عظمة وسطوة.

ومع أن إمبراطورية "أنهواك" الشاسعة كانت عظيمة وغنية، فإن جميع قبائلها لم تكن سعيدة، فالكثير من ذهب تلك القبائل ورجالها كان يقدم قرابين لمعابد الأزتيك، كفرضٍ من "تينوتش تي تيتلان" العظيمة على القبائل المحيطة.

كانت شعوب القبائل متعبة من تلك العبودية، وشيوخها يكظمون تذمرهم خوفاً من عقاب الإمبراطور العنيف سيد الجميع. لكن إرادة السماء كانت قد أعدّت شيئاً ما، وما قُدّر أن يكون فقد كان. فالشيخ العظيم لمملكة "تلاكس كالا"، وهي إحدى القبائل الخاضعة لإمبراطورية الأزتيك، كان قد قرأ ذلك، قرأه في ضوء النجوم. ومنذ ذلك اليوم وضع إرادته إلى جانب إرادة الزعماء والشيوخ الآخرين من كل الممالك والقبائل، وقال: "سيمضي شعبي في الطريق الذي اختارته الإرادة العليا لنا جميعاً. فلنتحد لنتحرر من تلك العبودية. لا ذهب بعد اليوم، ولا فتية من أجل مذبح الأزتيكيين". لكن الخوف شل إرادة زعماء القبائل الأخرى.

أمّا الزعيم الشجاع والمتمرد، شيخ مملكة "تلاكس كالا"، فقد بقي وحيداً مع شعبه في مواجهة الأزتيكيين. وبدأت الحرب بين رجال "تلاكس كالا" من جهة، والأزتيكيين الشجعان الذين انضم إليهم آخرون من سبع ممالك من جهة أخرى.

هذا الصراع الذي كان مكتوباً هناك في رسومات النجوم، كان قدر الزعيم الشجاع الذي تمكن من قراءة المغامرة الكبيرة التي

اصطفته الآلهة لتحقيقها، لم يقل لأحد، ولم يعلم بها أحد غيره إلا كاهن ساحر تمكن بدوره، أيضاً، من قراءتها وفهمها، وكتم السر أيضاً.

فلقد حدث أن أسرت فتاة بحبها المحارب الشجاع "فوفوكاتيفيتي"، بطل "تلاكس كالا". كانت الفتاة رائعة الجمال، مثل حبات الذرة الناضجة، وجميلة وبهية مثل الصباح. وكل العيون كانت تنظر بحب إلى الأميرة الجميلة "اكستاك سيهوات"، لكن الأكثر شجاعة من بين المحاربين وضع عينيه البراقتين وقلبه عليها.

وعندما خرج المحاربون، "التلاكس كاليين" إلى خوض المعركة في مواجهة الممالك السبع التي كانت قد اتحدت مع الأزتيكيين، أعطيت القيادة للشجاع "فوفوكاتيفيتي" صاحب الحب الصامت للأميرة، الذي لا يخضع ولا يركع، وطلب أمنية واحدة فقط:

"يا سيدي، إذا عدتُ منتصراً فاجعل لي "إكستاك سيهوات" زوجة، فأنا أهيم بها بصمت".

وسيد "تلاكس كالا" العظيم وعد، والوعد كان احتفالاً عظيماً على شرف الانتصار، وعلى شرف الزوجة الرائعة مثل الشمس.

"فوفوكاتيفيتي" الذي لا يهزم مضى أمام رجاله المحاربين، يقوده الأمل الجميل لقلبه، اجتاز الغابات، صعد التلال، اجتاز السيول الجارفة والبحيرات، يقاتل ضد مئات ومئات من الجنود، يصارع وينتصر، ويحارب دون هوادة، لا يهزمه الوهم، وبعد مئات المعارك فها هو بطل عظيم ومنتصر، وفقاً لوعد الإرادة العليا.

لقد قاتل "فوفوكاتيفيتي"، وهو المحارب الأعظم، وقد انتصر، ليعود مكللاً بريش طيور النسور، يعود ليبحث عن الجائزة التي وعد بها وحلم بها كثيراً.

وفي شوارع مدينته يستقبل بالموسيقى وأفراح النصر، لكن في قصر الملك الكبير كان هناك صمت يجمد القلب. عندها خرج سيد "تلاكس كالا" بخطى صامتة، ونظرات فاجعة، وأخذ "فوفوكاتيفيتي" من يده، وجعله يمضي معه في أروقة ظليلة، حتى وصلوا إلى سرداب محفور في الصخر. وهناك رأى الأميرة "إكستاك سيهوات" ملفوفة بكفن الموت الأبيض.

قال السيد الكبير بصوت مخنوق بالحشرجات: "لقد خبأتها لك يا ولدي، لكن الموت خطفها".

لكن البطل الذي هزم ستة ملوك، وجعلهم يوقعون معاهدة مع "تلاكس كالا"، لم يتكلم، فهو يشعر أن انتصاراته قد أحبطت، وأن سيده الأعظم قد خذله. أحس بقوة خفقان دمه، اهتز قوس النشّاب بين يديه، نادى على الظلال، ظلال أسلافه، أطلق صوته إلى السماء التي أهدته النصر لكنها خذلت حبه.

وفي الليل، وبينما البطل يروح ويجيء، وكأنه يهذي، وقد بدا لنفسه في ضوء القمر كأنه أصبح عملاقاً ضخماً جداً، انطلق يأمر، ويصرخ، ويحرك آلاف المحاربين الذين ينطلقون عظماء تحت ضوء القمر، فيجتازون الغابات، ويرفعون التراب، ويحركون الأرض، ويجمعون الجبال في مدرج هائل، ويكومون الصخور، ويرفعونها قبالة النجوم.

عندها، يأخذ "فوفوكاتيفيتي" بين ذراعيه الشابة الحبيبة، ويقفز بها مدرجات الجبال، ويمضي بها. وهناك في القمم يضعها ممددة وبيضاء تحت ضوء القمر، وإلى جانبها ينحني المحارب، يضيء بقبعته شعلة الحلم الأبيض للأميرة الهندية الرائعة الجمال.

لقد صار الحبيبان "إكستاك سيهوات" و"فوفوكاتيفيتي" جبلين تغطي قمتيهما الثلوج تحت شمس "أنهواك" كخاتمة حب خالد.

إله الهواء والحياة

إنها حكاية من حكايات الآلهة عند الهنود، " كيتزال كوتال" إله الهواء والحياة، الذي هبط إلى العالم من أجل أن يفتدي الناس، ويساعدهم، ويعيش معهم، حيث شعر جميعهم بحبه لأنه كان إلهاً طيباً، ولا يمكن أن يأتي منه أي سوء. وعنه يروون:

عندما ولد البشر، لم يكن في الدنيا شمس ولا قمر. عندها اجتمعت الآلهة في "تيوتيهواكان" لتفكر بالطريقة التي تمكنها من إنارة السماء والأرض، وبذلك يتمكن البشر من الرؤية.

قالت الآلهة كلمات كثيرة في ذلك المجلس. وفي الختام قررت أن يضحي إلهٌ بنفسه، وأن يتحول إلى شمس.

اثنان من الآلهة تطوعا للتضحية. الأول كان إلهاً غنياً وجباراً، والثاني كان إلهاً فقيراً ومريضاً. هناك بالضبط، في" تيوتيهواكان" رفعت الآلهة ميزاناً، من الحجر، وإلى جانبه أضرموا ناراً كبيرة.

استعدت الآلهة طيلة أربعة أيام متتالية، وقد صام الإلهان اللذان سيقدمان التضحية، وفي اليوم الخامس اصطفت الآلهة الأخرى، في صفين طويلين، وأمامها كانت تشتعل المحرقة ضخمة وبراقة.

الإله الفقير والإله الغني كانا جاهزين. صعد الغني ثلاث مرات إلى الميزان، وفي المرات الثلاث كان يخاف من الوهج ومن لون الوميض. أما الإله الفقير، فقد صعد مرة واحدة. أغمض عينيه وقفز إلى اللهب مسبباً بذلك الحرج للإله الغني الذي بدوره قذف بنفسه في النار أيضاً.

أطبق صمت طويل، كانت الآلهة فيه تنتظر وتنتظر، وانتظرت أياماً أربعة حتى خمدت النار. وفي اليوم الرابع بدأت السماء تتحول إلى الحمرة، وأخيراً ظهرت الشمس. وفي الوقت نفسه تقريباً، وفي الجهة المقابلة من السماء، ظهر القمر رائعاً وبرّاقاً كالشمس تماماً.

اعتقدت الآلهة أن ما تراه مجردَ وهم فامتعضت. أخذ أحدها أرنباً، وقذف به نحو القمر، فبدا بياض الأرنب، وقد ظهرت عليه بقعٍ من

الظلِ، ولم يحتج الأمر لأكثر من نظرة واحدة للتأكد من أن ذلك قد حدث فعلاً.

وبينما الآلهة مذهولة، وهي تنظر إلى الحدث الغريب، كانت الشمس في صفحة السماء ساكنة لا تتحرك، وكذلك القمر. ونظرت الشمس في عيون الآلهة المتسائلة والمندهشة، وقالت: "القوا بأنفسكم أيضاً علكم تصيرون نجوماً في السماء".

وأرسلت الشمس ريحاً قويةً وغريبةً ضربت الأرض، وخطفت الآلهة، وحوّلتها إلى نجوم، سمّرتها في السماء. وعندئذٍ، دار كل شيءٍ في الفضاء بفضل قوة الرياح تلك. ومنذ ذلك الوقت تتقد النّجوم عندما تنطفئ الشمس. وتنطفئ عندما تضيء.

كل هذا قاله كيتزال كوتال إلى الرجال في مدينة "تويان" العظيمة. لكن ماذا يقول الناس عن الإله الطيب، إله الحياة، إله العطاء، عن "الحيّة ذات الريش"؟ وهو الاسم الرائع لـ"كيتزال كوتال" الذي عاش في "تويان"، حيث كان الناس سعداء، فقد علّمهم كيتزال كوتال كيف يكونون سعداء، لأنه علّمهم أن يعملوا وأن يتمتعوا بالعمل. ولذلك، كان الناس في "تويان" يعملون في الأرض بشغف، فينمو نبات الذرة في عرانيس كأنها من ذهب. والقطن أيضاً ينبت بكل الألوان، فلا يضطر الناس لصبغه بعصير جذور الأعشاب.

في "تويان" أيضاً، سبك الناس الفضة والذهب. وصقلوا الأحجار الكريمة، وصنعوا التماثيل والبيوت من الحجارة. وزخرفوا فسيفساءات بريش طيور الـ"كيتزال"،[1] والـ"كوليبري"،[2] والـ "غواكامايو"،[3] ورسموا الشمس والقمر وحركة الأفلاك بإشارات.

لقد علّم كيتزال كوتال كل هذا للناس في "تويانٍ". لكنه لم يعلمهم فن الحرب، لهذا لم تصبغ حقولهم أية دماء بشريةٍ أبداً. ولهذا، فإن الناس في "تويان" وقّروا كيتزال كوتال، وشيّدوا له قصراً ومذابحَ ممتلئة دائماً بالخبزِ والورود والمسك. فقبل مجيء كيتزال كوتال، لم يكن نبات الذرة موجوداً في "تويان"، إذ كان الناس يعيشون على جذور النباتات والصيد. فقد كانت حقول الذرة محصورة بين الجبال، ولم يكن بمقدور أحد أن يجلبها إلى الناس.

---

[1] طائر الكيتزال طائر من طيور أمريكا الوسطى (المترجم).

[2] طائر الكوليبري طائر أمريكي حجمه صغير جداً له منقار طويل ومدبب، له ريش كثيف يسمونه العصفور الذبابة (المترجم).

[3] طائر الغواكامايو طائر ببغاء كبير ريشه أحمر وأزرق وأصفر (المترجم).

آلهة كثيرة حاولت أن تفصل الجبال التي كانت تغلق الممر إلى حقول الذرة، ولكنها لم تتمكن من ذلك. وفي أحد الأيام، جاء كيتزال كوتال وعرف كيف يصنع الأشياء بطريقة ثانية غير طريقة القوة. فلقد حوّل نفسه إلى نملة سوداء ونملة حمراء. وبدأ يصعد الجبل الذي كان نبات الذرة ينبت خلفه.

كان الجبل شاهقاً تكاد قمته تعانق السماء، وحوافه حادة ومنحدرة، وكان الوادي عميقاً، لهذا، كان لا بد من بذل جهد كبير لاجتياز كل تلك المعيقات الخطيرة، لكن كيتزال كوتال كان يشعر بحب الناس في قلبه، ولهذا لم يسمح للتعب أن يهزمه، فاجتازت النملتان كل المعيقات.

وصعدت النملتان صخوراً حادة وشاهقة، وعبرتا الحواف الصاعدة باتجاه السماء، وفي النهاية وصلتا إلى المكان الذي تنبت فيه الذرة.

أخذ كيتزال كوتال بـ"فكّيه" كنملة حبة ذرة ناضجة جداً وعاد إلى تويان. وهناك زرعها الناس لأول مرة، ومنذ ذلك الوقت تخلوا عن الصيد، وبدأوا ببناء المدن والمعابد، تغمرهم سعادة الاستقرار. ومن حينها والجميع يحترم ويقدس ذلك الإله الطيب، صديق الناس، إله الهواء والحياة كيتزال كوتال.

المايا*

مقدمة:

أرض مایاب (Mayab) هي الاسم القديم جداً لما يسمى اليوم "يوكاتان"، (Yucatan). وهي أرضٌ يبابٌ ووعرةٌ بسطحها المكشوف تحت السماء، لكنها من الداخل، تحت التربة الصخرية، تفيض بصمت الكهوف الكبيرة وعيون الماء الهادئة، التي تأتي الأفاعي والخراف المخملية لتشرب منها.

في تلك الأراضي التي يمنحها الندى في الصباح بريقاً قبل أن تبدده الشمس بحرارتها اللاهبة، هناك، يمر الهندي بسحنته التي لوّحتها الشمس. ويمضي صامتاً بطيئاً، يثبّت نظراته في المشهد الذي يخبئ ذكريات هنود المايا وحضارتهم القديمة.

شيءٌ قليلٌ هو ما يُعرف عن ذلك الشعب العريق، كباقي شعوب العالم القديم. وعن الرجال الذين شيّدوا في روابي السهول الصفراء قصوراً رائعة، ومعابدَ من حجرٍ، تمتزج في منحوتاتها وجوه الهنود مع الزخارف والنقوش البديعة المدهشة.

يُعرف القليل، لكن، يمكن تقدير القوة النادرة والعظيمة لتلك الحضارة من خلال إيماءات الهندي الحالي وروحه، الذي يعرف التاريخ الشعري والمعاني العميقة لكل شيء في سماء شعب المايا وأرضه.

* شبه جزيرة "يوكاتان"، Yucatan. أمريكا الوسطى.

وردة المايا البيضاء

كلّ الذين عاشوا في أرض المايا كانوا قد سمعوا عن الاسم العذب للأميرة الجميلة. جميعهم يعلمون أن "ساكنيكت" تعني "الوردة البيضاء".

كانت مثل القمر العالي الذي يسكن الليالي الهادئة. وكانت حبّابة مثل حمامة مطوقة بالهديل العذب، حمامة بهية وعذبة مثل قطرات الندى، كانت جميلة مثل الوردة التي تملأ الحقل بالسعادة المعطّرة، ورائعة مثل ضياء الشمس الذي يضم كلّ الألوان، وناعمة مثل النسمة التي تأخذ بين ذراعيها كلّ الأغنيات. هكذا كانت الأميرة ساكنيكت التي ولدت في المدينة الشامخة لـ"مايافان".

كان السلام يوّحد المدن الثلاث الكبرى كشقيقات على أرض مايا. والمدن هي: "مايافان" الجديدة والغالية، و"أوكسمال" الرائعة، و"تشي تشين إتزا" التي كان فيها المذبح ومعبد الحكمة. لم تكن هناك جيوش، لأن ملوك تلك المدن كانوا قد قطعوا عهداً بأن تعيش المدن مثل شقيقات.

كل الذين عاشوا في مايا سمعوا، أيضاً، اسم الأمير "كانيك"، الذي يعني "الأفعى السوداء". وكان مقداماً، وقوي القلب، وعندما أتمّ لثلاث مرات سبع سنوات، تم تنصيبه ملكاً لمدينة "تشي تشين إتزا".

في ذلك اليوم رأى الأمير "كانيك "القوي القلب، "ساكنيكت". وفي تلك الليلة لم ينم الأمير الشجاع والقوي القلب، ومنذ ذلك الوقت بدأ يشعر بالحزن يملأ أيامه.

كان عمر الأميرة ساكنيكت ثلاث مرات خمس سنوات عندما رأت الأمير "كانيك"، وهو يجلس في عرش مدينة "إتزا"، فخفق قلبها بالسعادة، ولما حلّ الليل نامت وثغرها مشتعل بابتسامة مضيئة. وعندما استيقظت ساكنيكت عرفت أنّ حياتها وحياة الأمير "كانيك" قد أصبحتا مثل نهرين يجريان معاً ليقبّلا البحر. وهذا ما حدث. وهكذا يغنّي أولئك الذين عرفوا ولم ينسوا ذلك التاريخ.

في اليوم الذي تم فيه تنصيب الأمير "كانيك" ملكاً للإتزيين، سكان مدينة "اتزا"، صعد إلى معبد مدينة "اتزمال" المقدسة ليقدم نفسه أمام الإله. اصطكت قدماه -قدما صياد- عندما نزل المدرجات الستة والعشرين للمعبد، وارتخت ذراعاه -ذراعا محارب- كل ذلك لأنه رأى الأميرة الوردة البيضاء.

كانت الساحة الكبيرة للمعبد تضج بالناس، الذين وصلوا من جميع أنحاء مایاب ليشاهدوا الأمير. وكل الذين كانوا قريبين منه لاحظوا ما حدث. لاحظوا ابتسامة الأميرة، وشاهدوا الأمير يغلق عينيه، ويشدّ على صدره بيديه الباردتين.

كان هناك ملوك وأمراء المدن الأخرى، جميعهم شاهدوه لكنهم لم يعرفوا أنه اعتباراً من تلك اللحظة بدأت الحياة الجديدة للملك، والحياة الجديدة للأميرة تركضان مثل نهرين معاً لتكملا إرادة القدر في الأعالي. وهذا ما لم يفهموه لأنه كان من الضروري العلم أن والد الأميرة ساكنيكت الملك الجبار لأرض "مایاب" كان قد منحها إلى الفتى "أوليل"؛ الأمير الذي يرث مملكة أوكسمال. كانوا هناك جميعهم ملوكاً وأمراء، والأميرة "الوردة البيضاء" اختارت الأمير "الأفعى السوداء" لتجعل حياتها تركض معه، كما يركض نهران معاً إلى البحر.

انتهى اليوم الذي تنصب الأمير "كانيك" فيه ملكاً على "تشي تشين إتزا". وبدأ العدّ للأيام السبعة والثلاثين المتبقية لزواج الأمير "أوليل" من الأميرة "ساكنيكت".

جاء مبعوثون ورسل من مدينة "مايافان" إلى ملك "إتزا" الشاب، وقالوا له: "ملكنا، يقول لك: "ادع الصديق والحليف إلى حفل زواج ابنته". فأجاب الملك كانيك بعينين تشتعلان:

"قولوا لسيدكم إنني سأحضر".

وجاء مبعوثون ورسل من مدينة "أوكسمال" إلى الملك كانيك وقالوا له: "أميرنا أوليل يطلب من ملك الإتزانيين المعظم أن يأتي للجلوس إلى "قداس" زواجه من الأميرة ساكنيكت". فأجاب الملك كانيك وكانت جبهته تسبح بالعرق ويداه مشدودتان:

"قولوا لسيدكم إنه سيراني في ذلك اليوم".

وفيما كان ملك الإتزانيين وحيداً ينظر إلى النجوم في السماء ليسألها، جاءه

السفير عند منتصف الليل على شكل قزم غامق وشائخ، وهمسٍ له: "الوردة البيضاء تنتظرك بين الأوراق الخضراء، هل ستدع رجلاً آخر يذهب ويقطفها؟" واختفى مع الهواء أو تحت الأرض، دون أن يراه أو يعلم به أحد سوى الملك.

في أوكسمال العظيمة كانت تجري التحضيرات لزفاف الأميرة "الوردة البيضاء" والأمير "أوليل". ومن مدينة "مايافان" خرجت الأميرة برفقة والدها والسادة العظماء في موكب مهيب، ملأ الطريق بالغناء. وإلى أبعد من بوابة مدينة "أوكسمال"، خرج الأمير "أوليل" يرافقه العديد من النبلاء والمحاربين لاستقبال الأميرة، لكنه، عندما شاهدها كانت تبكي.

كانت المدينة بأسرها مزينة بالرايات وبريش الديك البري وبالفضة وبأقواس ألوان برّاقة، وكان الجميع يرقصون، سعيدين وهم لا يدرون ماذا سيحدث!

أقيمت الاحتفالات الكبيرة طيلة أيام ثلاثة، أقيمت للمدعوين في مدينة "أوكسمال"، وكانت المدينة تهتز بالسعادة، فلا أحد كان يدري ماذا سيجري. وفي اليوم الثالث من الاحتفالات والقمر كان بدراً مدوراً كالشمس، كان ذلك هو اليوم الطيب لزفاف الأمير حسب طالع السماء.

لقد وصل إلى أوكسمال ملوك وأبناء ملوك، من كل الممالك القريبة والبعيدة، وجلبوا جميعهم الهدايا للعروسين الجديدين. جاء بعضهم بخراف بيضاء، لها قرون لولبية من ذهب. آخرون جاءوا بأقحاف سلاحف ضخمة معبأة بريش كيتزال البرّاق. جاء محاربون بزيوت الطيب وعقود من الذهب والياقوت. كما جاء موسيقيون بطيور مدربة على الشدو كموسيقى السماء. ومن كل الأماكن، جاء سفراء يحملون هدايا ثمينة، ما عدا الملك كانيك ملك "تشي تشين إتزا". لقد انتظروه حتى اليوم الثالث لكنه لم يصل، ولم يرسل أي مبعوث له.

كان الاستغراب والقلق يسيطران على الجميع؛ لأنهم لم يعرفوا السبب. لكن قلب الأميرة كان يعلم وينتظر.

لقد انتهى اليوم الثالث للاحتفالات، وتم تحضير المذبح المخصص للقرابين، لكن، سيد الإتزانيين الأعظم لم يصل. لهذا، كفّ الذين لا يعرفون السبب عن انتظاره وقالوا: "في حفل زفاف الأميرة ساكنيكت من الأمير أوليل تم انتظار سيّد تشي تشين ثلاثة أيام متتالية، لكنه لم يصل".

كانت الأميرة ساكنيكت تقف قبالة المذبح وهي ترتدي الألوان الصافية والمزدانة بالورود، بينما يقترب الرجل الذي ستقدم نفسها زوجة له. وردة مایاب تنتظر ... تتخيل الطرقات التي سيأتي منها الملك الذي وهبته قلبها. تنتظر وردة مایاب البيضاء، بينما كانيك الملك الشاب الحزين والصياد القوي يبحث يائساً في الظلال عن الطريق الذي سيسلكه، ليكمل مشيئة السماء. ففي حفل زفاف الأميرة ساكنيكت من الأمير أوليل تم انتظار سيد تشي تشين ثلاثة أيام متتالية، لكنه لم يصل.

لكن، الملك كانيك وصل في الساعة التي كان عليه أن يصل فيها. قفز فوراً وسط ساحة أوكسمال يرافقه ستون من رجاله المحاربين المهمين، وصعد إلى المذبح حيث كانت النار تتوهج والكهنة ينشدون. لقد وصل بلباس الحروب وعلى صدره شارة إتزا، وبدأ رجاله يصرخون: إتزالانا! إتزالانا! كما يفعلون في ميادين الحروب.

لم ينهض أحد لمواجهتهم. حدث كل هذا في لحظة، دخل الملك كانيك كالريح الحارقة، وأخذ الأميرة بين ذراعيه على مرأى من الجميع. لم يقوَ أحد على منعه، وعندما أرادوا النظر إليه، كان قد اختفى. وأمام المذبح بقي الأمير أوليل مع الكهنة فقط. لقد ضاعت الأميرة أمام عينيه يحملها الملك الذي مرّ مثل البرق. وهكذا انتهت احتفالات الزفاف.

وفجأة قُرعت القواقع، ودُقت الصنوج، وانطلقت صرخة غضب أوليل في الشوارع لتجمع رجاله المحاربين.

كان الأمير كانيك قد سار من مدينته تشي تشين إلى أوكسمال العظيمة، دون أن يراه أحد، لقد سار عبر الطرقات المظلمة، حيث توجد ممرات بين الحجارة، تحت التربة، في أرض المایاب المقدسة. هذه الطرقات لم يكن يعرفها أحد سوى أولئك الذين كان عليهم أن يعرفوها. وهكذا وصل الأمير كانيك دون أن يراه أحد ليخطف اليمامة العشيقة الحلوة جداً على ضوء قمر قلبه.

وها هي نصال الأسلحة تُسنّ لأول مرة في مایاب، وتُرفع رايات الحروب، ويتوحد الأوكسماليون والمایابيون ضد الإتزانيين.

"آه من الانتقام!! سوف يسقط على رأس "تشي تشين"، وهي لم تنم إلا القليل وقد هدّها التعب وألعاب الأفراح".

وأخذت الطرقات تمتلئ بغبار المسير، وامتلأ الهواء بصرخات الحرب وقرع القواقع وضجيج صنوج الحرب!

ماذا سيحل بك يا مدينة "تشي تشين" المتعبة والنائمة من سعادة أميرك؟ لكن المفاجأة التي بقيت كأنها سر هي كيف غادر الإتزانيون بيوتهم ومعابدهم في "تشي تشين"، وتركوا مدينتهم الجميلة مضطجعة على ضفاف المياه الزرقاء؟ حيث جميعهم كانوا يمضون في الليل، وهم يبكون على أنوار حملة المشاعل. كلهم مضوا على شكل أرتال، لينفّذوا تعاليم الآلهة وينقذوا حياة الملك والأميرة، نور ماياب ومجدها.

كان الملك كانيك يمضي بين حملة المشاعل وسط الجبال وخلفه أبناء إتزا، كان ملتفاً برداء أبيض وجبهة خالية من التاج المصنوع من الريش. إلى جانبه الأميرة ساكنيكت، التي كانت ترفع يدها وتشير إلى الطريق والجميع يسيرون في الخلف.

وأخيراً وصلوا إلى مكان هادئ وأخضر، إلى جانب بحيرة ساكنة، بعيداً عن جميع المدن. هناك وضعوا سدة المملكة، وبنوا البيوت البسيطة في سلام. وهكذا نجا الإتزانيون بفضل حب الأميرة ساكنيكت، التي كانت قد دخلت إلى قلب الأمير الأخير لتشي تشين، لينقذها من العقاب، ولكي يصنعوا حياتهما الصافية والبيضاء.

بقيت "تشي تشين" وحيدة وصامتة وسط الغابة بلا عصافير، لأنها طارت جميعها خلف الأميرة ساكنيكت. وصلت إليها جيوش أوكسمال ومايابان لكنهم لم يعثروا فيها على شيء، لا أصداء القصور، ولا أصوات المعابد الفارغة. عندها، أشعل حنقهم النيران في المدينة الرائعة، وأصبحت "تشي تشين" وحيدة وميتة مهجورة إلى جانب المياه الزرقاء. بقيت وحيدة وميتة يعطّر أنقاضها عبير ناعم يشبه البسمة والضوء الأبيض للقمر.

"ومن يومها، تنبت الوردة البيضاء في ماياب في كل ربيع، تزيّن الأشجار وتملأ الهواء بشذاها الطيب. وأبناء أرض المايا ينتظرونها ليحيّوها بكل حنان قلوبهم، وعندها يتم ذكر اسم الأميرة ساكنيكت".

طائر الفوهوي*

كل من يمشي أو يكمن ليلاً في طرقات أرض الهنود/ المايا، عليه أن ينتظر سماع صرخة تقول: "فواهو"، صرخة قوية تخرج من الصمت. وسرعان ما يسمعها مرات أخرى: فواهو! فواهو!

تنطلق الصرخة في الليل مثل سهم من قوس نشّاب. تأتي من هناك، من الطريق الأمامي التي يجبٍ على العابر أن يمرّ بها. وفيما بعد يسمع حركة طيران تخمد بعيداً في الدرب، وعندما يقترب الرجل، يعاود الصمت إطلاق الصرخة الحادة: فواهو! فواهو!

هكذا، يمضي المسافر، لتخرج له الصرخة مع كل خطوة، ويجفل، وتتكرر الجفلات نفسها وربما حتى الشفق. ترى من يكون هذا المرافق الخفي للمسافر؟ هذا الذي يمضي ويكمن ليلاً في دروب أرض المايا؟ ولماذا يعتقد أن المسافر قريب ليطلق عليه صرخته؟ ومرة ثانية يبتعد، ويعود ويحطّ في الطريق ثانية لينتظر، ولا ييأس؟

لا أحد يمكنه توضيح ذلك، غير أحد الهنود الصامتين، والعارفين بأسرار الألغاز، والتاريخ، وروح الأشجار، والأحجار، وكل شيء من السماء، حتى الأرض في المايا.

إنها حكاية الفوهوي العصفور البريء وفاقد الثقة الذي يخرج في الطرقات، ليبحث عن أحد ما، يخبره شيئاً عن ذاك الذي، منذ سنوات عدة، سخر من نيته الطيبة وخدعه بلا شفقة.

والمسكين فوهوي لا يفقد الأمل بالعثور على ذلك الخدّاع. وعن ذلك يقول الهنود في المايا:

أراد الرب الأعظم إيقاف العداوة والخصومة بين الطيور، فحاول أن يضع لها ملكاً يحكمها بسلام. أعلن الرب الأعظم اقتراحه لكل الطيور، ودعاها جميعاً كي تختار في يوم محدد الطير صاحب الحسنات الأكثر بينها.

* El puhuy:طائر صغير جاء اسمه من طبيعة الصوت الذي يطلقه (المترجم).

فاحتشدت الطيور جميعها، وبدأت تفكر بإظهار صفاتها الحميدة، وكل منها يكاد يكون متأكداً أنه سيكون الملك. قال البلبل جازماً وهو الطير صاحب التغريد الأكثر حلاوة:

"يجب اختيار الطير صاحب الشدو الأجمل". وبكل الثقة والمباهاة جرّب موسيقاه بعد أن حطّ على أعلى أغصان الغابة.

فكّرت البومة في داخلها: "بالتأكيد، فإن الرب الأعظم سيختار الطير الذي ينظر، ولكن أيّاً من الطيور لا يمتلك النظر مثلي!". وثبتت عينيها الدائريتين في الليل، وبدأت تتخيل الملوك.

قال الطاووس: "بالتأكيد سيتم اختيار الأكثر قوة، وسأكون أنا المسمى لأصدر الأوامر بين المحتشدين الكثيرين". وهزّ جناحيه العريضين، وكذلك الغصن السميك الذي كان يقف عليه.

قال النسر: "بالتأكيد من أجل حكم جيد يجب رؤية العالم من مكان مرتفع". وانطلق النسر في السماء محلقاً بين الغيوم.

قال الديك المكسيكي: "بالتأكيد، فإن الملك سيكون من يصرخ بقوة أكبر، فيجب إعطاء الأوامر بالشكل الذي يجعل الجميع يسمع وأنا !أنا! الديك المكسيكي، أنا قادر على ذلك، فإذا صحت، فإني أُسْمِعُ حتى القمر".

أمّا طائر الكاردينال[1] فقد قال: "بالتأكيد سأكون أنا الملك، فمن علامات الملوكية أن تُلبس فروة من الأرجوان القرمزية كريشاتي التي تبدو شعلة متقدة".

وهكذا شعر كل واحد من الطيور بالاطمئنان من فوزه.

كان الطاووس قد سمع ما قاله الآخرون من الطيور، عندئذ كان للطاووس ريشات متسخة وشعثة وكئيبة. لم يكن قادراً على التفكير في إمكانية اختياره، لأن بدنه كان ضخماً، وزيّه كان بشعاً وبائساً، لم يكن كالطاووس الذي نعرفه اليوم.

بدأ الطاووس يفكر دون أن يفقد الأمل، وجاء ليتفق مع صديقه الفوهوي الذي كان له ريش رائع. فقال الطاووس له: "يا صديقي تعال أحادثك بشيء يهمنا جداً نحن الاثنين: الرب الأعظم سيفكر بالتأكيد في تسمية الطير الأكثر جمالاً والأكثر هيبة، ملكاً على الطيور، فأنت لك ريش وفير جداً، لكنك صغير، وتنقصك العجرفة، أمّا أنا، فعلى العكس، لدي بدن له حضور كبير، وريشات أكثر وفرة. لكنني لا أقدر أن أعطيك بدني، أما أنت فيمكنك إعارتي ريشاتك.

[1] طائر الكاردينال طائر أمريكي لون ريشه رمادي، له خصلة شعر سوداء حول المنقار وغرة مرتفعة (المترجم).

كان الفوهوي يستمع إلى صديقه، فقال الطاووس له: "اسمع، تعال نعقد صفقة، أنت تعيرني الريش إلى أن يتم اختياري من قبل الرب الأعظم، وعندما أصبح ملكاً أردّ الريشات لك، وأكثر من ذلك سأتقاسم معك كل خيرات وتشريفات منصبي".

فكر العصفور الفوهوي في ذلك للحظة، لكن الطاووس عاد يغريه بالوعود، والعصفور الطيب والواثق لم يقوَ على الرفض. وهكذا بدأ الفوهوي بخلع ريشه، ووضعها لصديقه فيما الطاووس يثبتها جيداً حسب مقاسه. وبدأت تنمو وتنمو حتى صارت غطاءً بديعاً بذيلٍ رائعٍ تخرج منه ألوان الفضة والذهب.

"أيها الصديق الفوهوي، سوف ترى الخيرات التي سنتقاسمها معاً. قال الطاووس، وهو يختال بالجمال والبهرجة. وبقي المسكين الفوهوي منزوع الريش تقريباً يرتجف من البرد. ولما رأى طيوراً أخرى تأتي في الطريق تقترب منه أحس بالخجل واختبأ بين الأعشاب كي لا يروه.

حلّ يوم الموعد أمام الرب الأعظم، وحضرت جميع الطيور واثقة متأكدة، لكنها عندما شاهدت الطاووس بحلّته الجديدة المذهلة، بقيت مناقيرها مفتوحة من العجب والدهشة. فاختار الرب الأعظم الطاووس ملكاً وسيداً للطيور.

ومضى الطاووس بعجرفته وبنكرانه للجميل بعد تلك اللحظة التي حقق فيها مبتغاه، فلم يعد يتذكر الفوهوي الطيب، الذي ساعده وضحّى من أجله.

وفي يوم من الأيام عثرت الطيور على الفوهوي المسكين مختبئاً بين الأعشاب الطويلة، فاستغربت لنحافته وحزنت لذلك، عندها أعطاه كل واحد منهم ريشة من ريشاته، ولذلك فإن للفوهوي ريشاً قليلاً، ومنذ ذلك الوقت، يمضي خجولاً لأنه فقد ريشه. ولهذا السبب، وكي لا يروه بهذه الحالة، فإنه لا يخرج إلاّ ليلاً، يخرج ليبحث عن الصديق النذل الذي خدعه! ولأن الفوهوي طيب للغاية، فإنه يظن أن الطاووس سيفي بوعده يوماً ما.

الفوهوي الطيب لا يفقد الأمل أبداً، ويخرج إلى الطرقات وعندما يرى الإنسان، فإنه يقترب منه ويصرخ به :فواهو! فواهو! مرة وثانية يسأله إن كان قد شاهد الطاووس.

الرب الأعظم لا يترك الأفعال السيئة دون عقاب، لهذا لم يعد

الطاووس يشدو كما كان يفعل سابقاً بصوت عذب. فلقد علم الرب بالفعلة الشائنة التي فعلها، فأمر أن لا يشدو الطاووس أبداً.

ومنذ ذلك الحين وفي كلّ مرة يحاول الطاووس فيها أن يطلق صوته للريح، فإنه لا يجد سوى الزعيق والكركرة التي تجعل الطيور الأخرى تسخر منه.

أمريكا الجنوبية

مقدمة:

في بلاد غوويانا تتكثف الغابات، وتبدو وحيدة وبعيدة عن العالم، كأن أدغالها الرطبة شبك محكم، حيث الأنهار العريضة تجري، تلفها ظلال الغابة.

ولكن سلسلة الجبال العملاقة ذات القمم الشاهقة تبدو وقد نهضت من الأرض وحطمت السور العظيم للغابة وصعدت من بين الأدغال الخضراء، مشكلة جبل إيوان الذي انبثق من صعود ضخرة عارية لتتربع على قمة السلسلة متجهة بجوانبها المهشمة والحادة باتجاه السماء. ذلك الجبل المقدس عند هنود الأركانوس الذين يعتقدون أن الآلهة تعيش فيه، ومنه تسيِّر حياة البشر وترعى صحتهم.

أما في الوادي، فإن الأرض تكون دافئة ورطبة، بسبب الرذاذ المتطاير من مياه الأنهار الجارية والخضراوات الكثيفة.

في داخل الغابة المحاذية للوادي، توجد أماكن خلابة، يحكي زائروها الكثير عن تلك الأنهار، وعن الشلالات، وعن ما يسكنها من ببغاوات، وأفاعي الكوبرا، وأصناف الطيور المتنوعة، والحيات، والنمور، وحيوان التابير[1]،والخرفان، والقرود الرمادية. ويروون الكثير من الحكايات عن قبائل الهنود التي تعيش حياة بائسة وسط الأدغال الهادئة والبعيدة والمنعزلة في سلسلة جبال ايوان في أراضي قبائل الكاريبي.

[1] حيوان التابير من الثديات يشبه الخنزير البري، لكن ساقيه أطول وأنفه متطاول على شكل بوق له شعر قصير يغطي جسمه وذيل يكاد لا يرى، يعيش في مناطق مدارية في أسيا وأمريكا اللاتينية، وهناك من يأكل لحمه (المترجم). من الثديات اللاحمة، سريع، يشبه الفهد، لكن، جلده أصفر محمر ببقع سوداء، يعيش في غابات أمريكا قريبا من الأنهار (المترجم).

وفي أوقات المطر، تختفي قمة ايوان بين الغيوم، وتنفلت الشلالات من القمم، تقفز، تصطدم، تتحطم بين الصخور وترشح في الهاوية، بينما الجبل العملاق تحيطه أصوات عالية هي إضاءات الغيوم، وعندما تنير الشمس ذروة جبل "ايوان"، فإنه يبدو جليلاً ومثيراً للدهشة!

هناك في الأعلى تتشكل من الصخور قمم متباعدة منشطرة في أشكال هندسية، كأنها فصّلت على مقاسات خياليةٍ، وكأن الأيادي الخفية للآلهة امتدت لتضع على قمةٍ الجبل العملاق سوراً من الأحجار ومن بقايا كائنات حية وأشياء غريبة جداً.

وإذا كان الإنسان يعجز عن تسلق قمة جبل ايوان، ومن المستحيل عليه الوصول إليها؟ فمن الذي وضع هناك الأكوام العشوائية لتلك الأعمدة المقطوعة في الساحات المهدمة؟ ووضع بقايا تماثيل، وسقوف أكواخ، ووحوشاً في حالةٍ ترقب، ونسوراً بأجنحة مفتوحة؟ لكن، لم تكن هذه حالة قمة ايوان دائماً، وعند الهنود الأركانوس الشرح والتوضيح عن ايوان جبلهم المقدس، الذي يقولون عنه:

جبل ايوان

عند ضفة نهر الكاراو "El Carao" الذي يجري قريباً من خاصرة جبل ايوان، كانت هناك مدينة في الزمان الغابر، اسمها "تي كوفاي Tey Cupay"، وكانت الأكثر غناءً وازدهاراً بين جميع المدن، يتوافد الناس إليها من القبائل النائية بكثرة، ليروا الجبل الذي تسكنه الآلهة التي تعيد للإنسان الصحة والسلامة المفقودة. ومن بين الأكواخ العديدة لمدينة تي، تظهر قمة ايوان بوضوح.

عندما كانت الصاعقة تطلق الرعد ليدوّي ثم ينتهي متبخراً في الوديان العميقة للجبال، كان الهنود يبعدون النظر خائفين من غضب الآلهة الطيبة، يخشون أن تحل عليهم الويلات، لأن الألم والمرض يقهران البشر دائماً. لهذا، كانت نظرات الجميع تتجه متوسلة نحو قمم الجبل، كي تنحدر العطايا منها كمواساة حلوة وتهدئة طيبة.

منذ سنوات كثيرة جداً، وفي ظهيرة ربيعية دافئة وصافية، وصلت عدة قوارب إلى الميناء الصغير للنهر، قوارب من قبائل أخرى بعيدة، جاءت تحمل رجالاً ونساءً مرضى، ومعهم رجال كثيرون ليساعدوهم في الوصول إلى جبل ايوان المقدس.

خرج الناس في مدينة "تي كوفاي" لاستقبالهم، وليقدموا لهم أغطية لأكواخهم، وكانت قلوب الهنود الأركانوس/Arecunos تتراقص فرحاً برؤيتهم العدد الكبير جداً من القبائل.

في اليوم التالي نظموا الحفلات على شرف المسافرين، أحضر الرجال من الغابات كميات كبيرة من لحم الماشية والأسماك، جمعوها وقدموها مشوية مع فطائر الذرة والأناناس والموز في مركز البلد وسط الأكواخ الكبيرة. وحولها كانت أوانٍ عريضة مليئة بشراب الكاتشيري[١] (Cachiri) الخمر الذي يجعلهم ينتشون ويمرحون.

اجتمع كل الهنود، وخيمت عليهم السعادة، فالمزامير والطنابير أعطت موسيقاها الإذن لبدء الرقص. وبدأت تسمع الأغاني وحفيف

[١] Cachiri: مشروب شائع في فنزويلا (المترجم).

أوراق الأشجار اليابسة من سعف النخيل الذي كان يضعه الراقصون عليهم. وهكذا تواصلت ساعات وساعات من الغناء والرقص، كان يقطعها فقط ذهاب الرجال والنساء إلى الأواني، ليشربوا رشفات كبيرة من شراب الحفلة، لكن هناك في الجانب الأخر بقي المرضى وحيدين مع آلامهم، متروكين في أكواخ خوص صغيرة، ومن جميعها كانت تنطلق الحسرات نفسها والتوسلات نفسها في طلب المساعدة:

تعالوا تعالوا أيها الأخوة ... خذونا إلى جبل المعجزات ايوان!

لكن لا أحد كان يسمع التوسلات أو يتذكر الآلام؛ فالحفلة تستمر بالغناء، وبالصرخات، والجرار يعاد ملؤها بالشراب، وعندما اختبأت الشمس خلف قمم ايوان استمرت الرقصات، ومن تأثير شراب الكاتشيري كانت صيحات الفرح تنطلق، وهيجانات الحفلة ترتفع وتمتزج بأنين المنسيين والمهملين.

وبسرعة اغمقَّت الشمس، واختفت قمة ايوان خلف غيوم كبيرة رصاصية اللون. وفجأة، شق السماء برق كبير، ورعد بعيد صار يقترب حتى جعل الأرض تهتز. جاءت عاصفة محمولة على رياح هائجة، وتوقفت تهدد فوق مدينة "كوفاي"، وبدأت العاصفة تجول في المدينة يرافقها هدير الرعد، وغيوم تحولت إلى شلالات.

كبرت العاصفة، وجعلت الأكواخ تهتز وتنتفض! وكذلك الأحجار! وازدادت الرياح بصفيرها، وخرج الهنود مذعورين إلى الساحات، فالأشجار الغليظة قد اقتلعت من جذورها، وألقي بها بعيداً، وبعضها كان يتدحرج ويقفز.

فرت الحيوانات هائجة من الغابة، دفعتها غريزتها نحو السفوح والمروج، لتختبئ في المكان الذي يحيا فيه الإنسان.

حيوان الجغوار والمواشي وحيوانات البفري الشاحمة، عبرت راكضة في المرج تزمجر من الهلع. وكانت حيوانات التبري وحيوانات الباكه[1] تبحث عن مخبأ في مياه النهر، فيما كانت الطيور الكبيرة تجاهد بأجنحتها المضروبة ضد الإعصار.

قعقعة الصاعقة ودويها وصرخات الناس وعواء الوحوش، كانت تختلط جميعها في صخب واحد ووحيد، لقد اهتز وادي "تي كوفاي"، والإعصار اقتلع الأشجار، وتطايرت أكواخ الخوص في الهواء.

السقوف المصنوعة من سعف النخيل كانت تعلو فوق الناس والدواب مثل

[1] حيوان الباكة ثدي قارض جنوب أمريكي يؤكل لحمه (المترجم).

الريش، وتدور في الهواء، وكذلك الطيور الكبيرة التي تكسرت أجنحتها، لكن جبل ايوان فقط بقي ثابتاً ومحافظاً على مكانته وشموخه. فلقد حاول الإعصار أن يلفه في حلقات زوابعه، لكن قوة الإعصار خارت وتفتتت، لكنها رفعت كل ما جمعت وما تم اقتلاعه وتخريبه في السهل حتى الذروة إلى هناك بين الغيوم.

وفي اليوم التالي أشرقت الشمس، وقمة ايوان التي كانت من قبل نظيفة بدت مغطاة بمزركشات نادرة وغريبة مقلوبة، فكانت هناك سقوف الأكواخ والخوص، وأشجار مقطعة، وجثامين هنود مقطوعة، وأنصاف نساء جميلات، وبلاعيم وزلاقيم ووحوش وطيور مفتوحة ومخالب متشنجة في الصخور، وصقور بأجنحة مفتوحة للقفز إلى الجرف.

لقد جمّع ايوان المقدس في قمته كل تلك الأنقاض، وهناك بقيت مخزونة ومحفوظة بين الأحجار كتذكار لمدينة تي كوفاي التي حطت عليها لعنات الآلهة وغضبها.

عذراوات الشمس

مقدمة:

هناك في أعلى هضاب الأنديز المحاطة بقمم ثلجية، توجد وديان خصبة ودافئة المناخ، وهي المكان الذي أقام هنود الـ"كيتشواس" عليه إحدى الحضارات الأكثر غناء، وإثارة للفضول في أمريكا القديمة، حضارة الإينكا.[1]

هناك في أراضي البيرو وبوليفيا توجد بحيرة "تيتيكاكا" (Titicaca)، البحيرة الكبيرة التي تقع على ارتفاع أكثر من ٤ آلاف متر فوق سطح البحر، وبقربها توجد آثار وبقايا مدن طاعنة في القدم، عمرها آلاف السنين، كما توجد آثار قلاع وحصون وهياكل ومعابد تثير الإعجاب.

هناك عند البحيرة يوجد المكان الذي تتحدث الأسطورة عن أن الأب رب الشمس، الذي أرسل إليه اثنين من أبنائه: رجل وامرأة ليقيما إمبراطورية الإينكا الأولى.

فلقد أرسل أبناءه ليعملوا وليحكموا الهنود الـ"كيتشواس" في ذلك الوادي. وكانوا هم الذين بنوا مدينة "كوزكو" العاصمة التي امتد منها، وخلال قرون، نطاق الإمبراطورية، وتوسع في حكومة جبارة لإمبراطورية الإينكا.

لقد أرسل الرب أبناءه، ليصنعوا الخير للإنسان، ولكي يعلموه كيف يحيا بالعمل والنظام والسلام حسب مشيئة الرب الشمس الإله الطيب، الذي لم يفرض على الناس تقديم القرابين البشرية له، بل أراد أن يراهم سعداء.

و"الإينكا" أكثر قدماً من الـ"كيتشواس" الذين طوّروا ثقافتهم في هضبة بوليفيا والبيرو، وكذلك في منطقة "تيتيكاكا"، حيث لا تزال سلالة ذاك الشعب العريق تعيش هناك.

[1] الهنود/ الإينكا إحدى القبائل الهندية.

كانت في مدينة كوزكو عاصمة الإمبراطورية قصور ضخمة ورائعة، بمثابة معابد تعيش فيها أجمل العذراوات اللواتي يكرسن حياتهن لعبادة الشمس. عاشت العذراوات المقدسات من غير أن يرين أحداً أو يتحدثن مع أي شخص ما عدا الملكة زوجة الإينكا فقط التي يمكنها أن تزورهن. فلقد كانت عقوبة الموت تنتظر كل من يجرؤ على حب إحداهن، ومن أجل أن لا يقدر أحد على الدخول إلى مكان سكناهن، فقد تمت إحاطة المكان بحصون عالية، وحراس أوفياء يحيطون الأديرة، حيث كانت عذراوات الشمس.

الراعي وعذراوات الشمس

على الخاصرة الخضراء للجبل الذي تغطيه الثلوج، كان شعب "الإينكا" يخبئ الماشية البيضاء، لتقديمها كأضاحٍ وقرابين لإله الشمس.

كان الراعي الشاب يدعى "اكويا نافا" لطيفاً، وله مظهر لائق وحسن، يمضي خلف ماشيته، وكان يجلس سعيداً والقطيع يرعى، ويخرج الناي الذي كان يرافقه دائماً، ويبدأ بعزف موسيقى هادئة وعذبة تزيد سعادته.

وفي يوم كان فيه منشرحاً جداً، وهو يعزف، جاءته اثنتان من بنات الشمس كانتا تعشيان في أحد قصور المدينة المجاورة، إذ كان قد سمح لهما بالخروج في النهار كي تتسليا في الحقل، لكن لم يكن مسموحاً لهما الغياب في الليل عن مسكنهما المحروس جيداً من قبل حراس صارمين.

وصلت العذراوان إلى الراعي وسألتاه عن الرعي وعن قطيع أغنامه، فبقي "أكويا نافا" جالساً وهو مذعور، ثم فكر أن يطلق ساقيه للهرب، فهما إضافة إلى أنهما مقدستان وابنتان للشمس، فهما فائقتا الجمال، لكنهما طلبتا منه ألاّ يخاف، وعاودتا السؤال عن أغنامه، ثم أخذتاه من ذراعه لينهض.

وقف الراعي أخيراً وقبّل يد كل واحدة منهما، وهو مندهش من روعتهما.

العذراء الكبيرة واسمها "تشوكي بيانتو" انجذبت للكلام مع "اكويا نافا" بعد أن بانت خفة دمه، وبعد لحظات ودعتاه.

بدأت "تشوكي بيانتو" تتحدث مع أختها عن لطافة ذلك الراعي وبهجته، واستمرتا بذلك طوال الطريق حتى وصلتا إلى قصرهما، حيث رآهما حراس البوابة، وفتشوهما؛ إذ يقولون في تلك الأيام إنهم وجدوا إحداهن وقد خبّأت رجلاً حبيباً على قلبها وجعلته يمر مختفياً بين الملابس!

دخلت العذراوان إلى قصر بنات الشمس وزوجاتها – الشمس – اللواتي كن ينتظرن أطيب الأكلات المطبوخة في قدور من الذهب الناعم، لكن تشوكي ذهبت مباشرة إلى مخدعها ليكون بمقدورها التفكير منفردة بالراعي، الذي بدأ قلبها يخفق بالحب اتجاهه.

وفي تلك الأثناء، كان "اكويا نافا" قد دخل إلى خصّه ليفكر منفرداً في المفاجأة العظيمة لتشوكي الرائعة، لكنه بدأ يشعر بحزن شديد، فأخذ الناي وعزف ألحاناً شديدة الحزن، جعلت حتى الحجارة تشفق عليه، ثم غنّى وهو يبكي:

"آه! آخ! منك! أيها الراعي البائس! أيها العاجز عن كل شيء ... أه! منك! لا تقدر على رؤية حبيبة قلبك، ولو رأيتها فإن حبك سينفضح، وسيقضى عليك وعلى حبك، وسينتهي الحب بالموت" ... واستمر يغنى بحزن شديد جداً حتى غفا.

لكن أمه العجوز البعيدة عنه، قد حدست بسبب عذاب ابنها، وراحت تهيئ نفسها للسفر إليه، فحملت معها سلة مزركشة وفاخرة، وبدأت تمشي في الجبال حتى وصلت إلى الزريبة التي يسكن فيها ابنها.

ثارت عواطف الراعي عندما شاهد أمه، وأخذت تواسيه وتقول له إن أحزانه ستزول خلال بضعة أيام، ومن أجل ذلك ذهبت تحضّر له طبخة السلاحف، الأكلة الموصوفة للحزن عند الهنود، وبينما هي تطبخ، رأت بنات الشمس قادمات باتجاه الزريبة، ثم جلست الاثنتان عند المدخل ترتاحان من التعب، وعندما شاهدتا المرأة العجوز في الداخل طلبتا منها شيئاً للأكل، فقدمت لهما صحنا من السلاحف، أكلتاه بشهية كبيرة.

بدأت تشوكي تنظر حوالي الزريبة وإلى داخلها برغبة كبيرة علّها تعثر على"اكويا نافا"، لكنها لم تجده لأنه في لحظة وصولهما أمرته أمه أن يدخل في السلة التي أحضرتها معها، (يقول الهنود إن ذلك كان ممكناً في تلك الأزمان).

ظنت تشوكي أن حبيبها الراعي يحرس القطيع، لهذا لم تسأل أمه عنه، وعندما رأت السلة قالت: "ما أجملها!". وسألت: "لمن هذه السلة؟". فأجابتها العجوز: "إنها لها وقد ورثتها عن والديها، فهي سلة فاخرة جداً". وأضافت العجوز إنها تقدمها وبنفس طيبة هديةً لها، وبإمكانها أخذها معها إلى القصر.

وبعد قليل، ودعت ابنتا الشمس أمّ الراعي، واتجهتا نحو المرج تحمل تشوكي السلة بيدها وفي عينيها شوق لرؤية راعيها هنا أو هناك، فهي لم تره في زريبته.

وصلتا إلى القصر، وعند المدخل فتشهما حراس البوابة ولم يجدوا شيئاً معهما عدا السلة التي لم تكونا تخفيانها.

وبعد العشاء، أخذت تشوكي سلّتها الجديدة وذهبت إلى مخدعها، وهناك بدأت تبكي، وتتذكر الراعي الذي أحبه قلبها، لكنه لم يدعها تذرف الكثير من الدموع عندما أخذ "اكويا نافا" يناديها باسمها، فارتعبت وهلعت، لكنها صارت تذرف دموع الفرح عندما رأت حبيبها الراعي، وراحت تسأله كيف دخل إلى هناك؟ فأجابها بالحقيقة عن دخوله في السلة التي جاءت تحملها.

عانقته تشوكي، ووضع "اكويا نافا" رأسه على رجل تشوكي، التي راحت تمسّد شعره بلطف وحنان، وتنظر إليه بعينيها الرائعتين الساحرتين حتى مطلع الفجر، عندها دخل الراعي مرة ثانية إلى السلة، وحبيبته ابنة الشمس تنظر إلى تلك المعجزة.

وبعدما خرجت الشمس وقبّلت الأراضي كلها، خرجت تشوكي من القصر إلى المروج وحيدة، تحمل السلة، وفي أحد الكهوف في الجبال جلست مع حبيبها مرة ثانية، لكن حدث أن رآهما أحد حراس القصر الذي كان يتبعها، وشاهد كل شيء فبدأ يطلق الصيحات، يستدعي الحراس الآخرين، فهرب الراعي وحبيبته إلى الجبال القريبة من مدينة "كالكا"، ومن شدة التعب نام الحبيبان وعندما استيقظا كانا مرعوبين من الموت المحتم الذي ينتظرهما كعقاب، فنهض الاثنان يرتعدان خوفاً، حيث كانا محاطين بالناس والحرس.

أخذت هي في يدها فردة من حذائها، ونظرا إلى الناس في "كالكا" وصارا يشعران أنهما يتجمدان في مكانهما، ثم صارا كتلة صلبة كبيرة وضخمة، لقد أخذا بالتحول إلى حجارة.

اليوم يمكن رؤيتهما من "كالكا" ومن مناطق أخرى، لقد صارا جبلين كأنهما تمثالان يذكران بالحبيبين الراعي وابنة الشمس.

أويَّانتي (Oyallanty)

المحاربون يعودون منتصرين من المحافظات البعيدة، بعد أن حاربوا أولئك المتمردين، وأعادوا محافظاتهم إلى سيطرة إمبراطورية "الإينكا".

يعودون من بعيد إلى "كوزكو" المدينة العظيمة، ليهدوا انتصارهم إلى "الإينكا" ابن الشمس. وفي مقدمتهم يأتي "أويّانتي" بطل الأنديز، الشاب الطويل القوي، القائد المحارب والمنتصر.

في مدينة "كوزكو" تمّ تزيين القصر الإمبراطوري من أجل استقبال أويّانتي المنتصر، وفي العرش الذهبي ينتظر الإينكا محاطاً بهدايا عظيمة إلى القائد المحارب.

هناك وإلى جانب العرش، كانت زوجة الإينكا والأميرة "كويّيور"، ومع أن اسمها يعني "نجمة"، فان عينيها كانتا حزينتين وخافتتين مثل الفوانيس عندما يشرق عليها نور الصباح.

تقترب الحاشية، وتقترب معها أصوات النايات المصنوعة من قصب السكر ومن العظام، وكذلك تقترب أصوات الطبول الكبيرة، وتسمع الجوقات وصرخات الشعب الذي يهتف للأبطال.

وإلى صالة العرش يدخل، الموسيقيون والمغنّون والمحاربون، الذين ينقلون هدايا الذهب والأحجار الكريمة.

يعلن المنادي إلى الربان الكبير ابن الأنديز ظهور أويّانتي بثياب ملونة، وهو عاري الذراعين والفخذين، وفأسه في الخصر، والخوذة مزركشة برأس النسر.

يصل أويّانتي ، ويتقدم وينحني أمام العرش، يتكلم وصوته رصين:

– "سيدي، يا ابن الشمس، لقد انتصرت كما أردت أنت، وهنا عند قدميك كما الشعوب التي هزمتها، أضع الفأس التي أخذتها إلى المعركة، قل لي إن كنت استحق فضلك؟ وإن كنت أقدر أن أقول لك رغباتي كما وعدتني، عندما خرجت إلى الحرب؟".

نهض الإينكا وأخذ أويّانتي بين ذراعيه. ورفع أويّانتي رأسه ونظر إلى الأميرة "كويّيور"، فبقيت عيناها ثابتة في عيني المحارب القوي كوعد حب صامت.

قال الإينكا:

– "اطلب! اطلب أيها الشجاع أويّانتي، ستجدني جاهزاً لأكرّم النصر البطولي لأفضل رجالي المحاربين. تكلم ولا تصمت. فكل الخيرات تبدو لي أنها لا تكفي لتكريمك".

وبقي أويّانتي صامتاً، تتجه نظراته ثانية لتتقاطع مع نظرات العيون الثابتة لكوييور اسم النجمة.

– "تكلم، اطلب يا أويّانتي"..ألحّ الإينكا: "قل ما تشاء".

فتحدث أويانتي:

– "أيها السيد، يا سيدي، أريد نجمة. لكن الإينكا لم يفهم، وعبّر عن ذلك بنظراته إلى المحارب.

– "نعم أيها السيد العظيم، أريد نجمة، أريد كوييور ابنتك التي تهب الحب لقلبي".

فارتعد الإينكا، واشتعلت عيناه كالجمر، وبدأ فمه يرتعش قبل أن يتكلم:

– "مستحيل هذا أبداً، يا أويّانتي ... فأنت بذلك تطلب تدمير الأعراف السماوية للإينكا، ففي جسد الأميرة تجري الدماء المقدسة للشمس، وكذلك دماء القمر، ولا يمكن خلطها بدماء الإنسان. هذه هي قوانين الإينكا ابن الشمس التي تريد أن تنتهكها. كيف يمكن أن يتسع قلبك لرغبة مرعبة كهذه؟".

رفع أويّانتي نظراته عالياً وقال:

– "أنا ابن الأرض الأقدم من القمر، وبخفقان من نار الجبال انولد في قلبي حبّ النجمة القوي، الحب الذي لا ينهزم، وهكذا تحبني كوييور، ولن تكون هناك قوة في العالم يمكنها أن تعارض ملكاً من الأنديز".

– "لا أيها المتشامخ أويّانتي! لا أريد سماعك! ابتعد من هنا".

وفي الوقت الذي تمكن أويّانتي فيه من الوصول إلى البوابة، والخروج منها، تابع ملك الإينكا صراخه:

– "أيها الجند، يا جنودي اتبعوه! لا تدعوه يخرج من مدينة كوزكو، فليمت

قبل أن يصل إلى قمم جبال الأنديز. أعلنوا الحرب عليه وعلى أتباعه، ولتطبّق قوانين أبناء الشمس والقمر".

وفيما بعد، ثبت الإينكا نظراته في "كوبيور" الجميلة، وفي عينيه سؤال مليء بالحسرة. لكن كوبيور تحدثت بصوت واثق:

– "سيدي ابن الشمس ... أنت والدي الإينكا، مالك كل الإمبراطورية، لكن قلبي سليل القمر والشمس قد احتله أويّانتي، نعم لقد احتله".

– "لا!"، صرخ الإينكا مزمجراً: "أبداً يا ابنة الدم المسمم بحب إنسان، لن تمزقي قانون القدر. أنا سأمنعك. ستكونين مدفونة في بيت العذراوات المنذورات للشمس. وسوف تنتظرين هناك ساعات حياتك لتكوني عروساً لها. هذه هي قوانيننا. القوانين المقدسة لأبناء الشمس".

ماذا سيحل بك، يا كوبيور الجميلة والحزينة يا اسم النجمة!؟ ماذا سيحل بك بين عذراوات الشمس في ذاك المحفل المحاط بأسوار مغلقة وعالية!؟ ماذا سيحل بك بغير حب أويّانتي!؟ سوف يقدّمونك إلى الشمس كزوجة، بحسب معتقدات الإينكا. وبينما أنت تحلمين ببطلك فهم يطاردونه، وهو يهرب، يريد الاجتماع بمحاربيه في الجبال.

إنك يائسة من غير أمل. الليل والشفق سيفاجآنك بعينين مليئتين بالحب الضائع. أيتها الجميلة والحلوة يا كوبيور! الحب قريب ويحيط بك مع الأسوار العالية. إنك لا تعلمين أيتها العذراء الشاحبة، إنك ستمضين إلى لقائه هذه الليلة في الحقل الذي تتمشين فيه مع أحزانك تحت النجمات. إنك لا تعلمين، لكن، أويّانتي قريب منك وسيأتي، لأنه لا شيء يمنع رغبته، فلقد دخل إلى حيث الأبواب قد أغلقت، وها هو قريب جداً منك، وأنت الآن تستمعين إلى قلبه في صدرك. الآن ستشعرين أنك مأخوذة كما لو كنت تطيرين على ذراعي أويّانتي الجبارتين، يحملانك بلطف كما لو كنت ملتفة بغيمة تحت القمر الذي يرانا.

أنت لا تعلمين إلى أين تذهبين، لكنك ستشعرين بالأمان بين الذراعين اللتين تحملانك، وترفعانك إلى الجبال، وسوف تشعرين بالنسيم العليل والنقي في القمم الشاهقة التي يصلها نسر الكوندور. وهناك سوف ترتاحين في خيمة أويّانتي التي شيدها من

الجلود القوية، ستكون قلعة من قلاع الأنديز، يحميك فيها آلاف المحاربين، يحرسون القمم والطرقات والأعناق تحت النجوم.

وأنت أيها البطل المقدام، سوف تشعر بالسعادة لأنك تحديت قوانين الآلهة. إنها قلعة الصخور في أعلى الجبال، يحرسها آلاف المحاربين الأوفياء لأويّانتي. وفي كل مكان توجد عيون يقظة في القمم وفي النهر الذي يجري في الوادي.

أما خيمة أويّانتي، فيحرسها المحاربون الأكثر وفاءً له، ويصمتون كي لا يعكرون صفو أحلام الأميرة التي اقتُلعت من بين أبناء الشمس وتم تنصيبها ملكة وأمّاً لأبناء الأرض الذين سنّوا الأسلحة، وهيأوا صدورهم لقتال جيوش الإينكا إن وصلت إليهم.

ويمر ليل النجوم صامتاً فوق بلاد الأنديز. ويخرج أويّانتي من الخيمة ليتكلم مع قياداته، فتصله أخبار أن الإينكا أرسل جيوشه ضد القلعة. وكل شيء جاهز للمقاومة وللانتصار. فلا أحد يقدر على الوصول إلى أعلى القمة، حيث توجد الأميرة.

وفي الحال، يأتي أحدهم ليبلغ عن وصول رجل جريح إلى بوابة السور يقول إنه يحمل أخباراً إلى أويّانتي.

وعلى ضوء المشاعل، تعرّف أويّانتي على "رومنيهوي" قبطان جيوش افيننكا ورفيق حروب كثيرة، الرفيق الذي كان قد أنقذ حياته. ورومنيهوي يأتي جريحاً يقول: إن الإينكا قد أقصاه عن القيادة وعاقبه بشكل قاس لأنه لم يتمكن من منع هروب أويّانتي واختطاف الأميرة، وهو الآن في حالة حقد ويستعد للقتال ضد السيد القاسي.

يأمر أويّانتي بعنايته وحراسته، لأنه لم يكتشف التزلف والخديعة المختبئة في قلب رومنيهوي.

وجيوش الإينكا أتت بصمت عبر الطرقات والجبال وعند بزوغ الشفق كانوا قد وصلوا إلى الوادي الذي تسيطر عليه القلعة.

ودارت حرب عنيفة بين جيوش الإينكا ومحاربين الأنديز فاحترقت الغابات، وسقط مطر من النبال ورعود من الحجارة تساقطت من المجنبات، والخديعة والخيانة سمحتا للأعداء بالتقدم بين دخان الحرائق.

أمر أويّانتي رفاقه أن يأخذوا الأميرة كوييور إلى ممر في داخل الأرض، ينفتح بين الصخور، ويتجه نحو السور الذي يحيط بصولجانه، لكن إلى جانب السور كان الخائن يزحف، ويتقدم ويقترب من ظهر أويّانتي، ويفرغ ضربة

جبارة من فأسه على رأس البطل، فسقط بطل الأنديز مضرجاً بالدماء وفاقداً للوعي وسط حصنه المنيع. فبالخيانة فقط أمكن مهاجمة قلعة الأنديز. فلقد زحف المحاربون الإينكا في الليل حتى السور، وانتظروا إشارة النار التي أرسلها الخائن رومنيهوي.

وتم أسر كوييور وأويّانتي، وأخذهما إلى مدينة كوزكو، حيث كان الإينكا العظيم قد اعدّ لهما العقاب.

وصلت هوادج القضاة مرفوعة على حمالات من ذهب. وأمام ابن الشمس احضروا كوييور وأويّانتي الجريح بلا خوذة ولا سلاح!

وفيما يحتفظ الكهنة بصمت مطبق وجّه الإينكا سؤالاً إلى أويّانتي:

– "لماذا انتهكت معبد عذراوات الشمس؟" وكان صوته يدوي ويهدد..

تقدمت كوييور وقالت:

– "كنت أنا يا أبي وسيدي، لم يكن الذنب ذنبه، بل أنا هربت إلى الجبل لاتبعه لأن قلبي كان يوجهني نحوه".

لكن أويّانتي سيقول الحقيقة، ينظر بحزم إلى "الإينكا" ويقول: "هذه هي الحقيقة أنا اختطفت الأميرة، إني أحبها على طريقة حب أبناء الأرض وأخذتها معي، أنقذتها من العقاب الفظيع الذي كان قد أعدّ لها. فلا يمكن للشمس أن تأخذ لها زوجات من لحم من بنات الإنسان، إنما فظاعتك ووحشيتك هما القادرتان على تقديم حياة الأميرة الشابة ... أنا فقط من يحبها، وعندي الاستعداد للتضحية بحياتي لأجلها وليس أنت أو الشمس التي تدعي أنك ابنها".

في عيني الإينكا لمع برق من الحقد، فقال: "أويّانتي أيها الزنديق! اعترف بذنبك المارق. القانون سيطبق وسيحرق المذنب بالنار المخلصة. أما الابنة التي تدنست فسوف تنفى وتتشرد في الصحارى".

سمع أويّانتي كلمات الإينكا ونظر إلى كوييور، وفي النظرات كانت مواساتهم الكبيرة.

سار المحارب صاحب القلب الذي لا يهزم، سار بخطوات واثقة نحو الموت وهو يفكر في كوييور الحبيبة الجميلة.

مات أويّانتي البطل! أما كوييور النجمة الحلوة فلقد شرّدت إلى الحقول والصحارى، لكن في إمبراطورية الإينكا يتذكر الجميع ذلك الحب الذي وحّد لأول مرة بين ابن الأرض وابنة السماء.

ومنذ ذلك الوقت والجميع يعبرون عن إعجابهم بكوييور اسم النجمة وببطل الأنديز الذي أحبها على طريقة أبناء الأرض.

الذاكرة الساحرة للهنود

مقدمة:

على طول أمريكا الجنوبية تستند التربة إلى الجدار الجبلي، الذي تشكله جبال الأنديز في سلسلة من القمم الشاهقة تصعد وتهبط، تتجمع وتفترق، وفي وسطها توجد هضبة كبيرة، هي الهضبة البوليفية، حيث توجد هناك البحيرة العملاقة، وكأن الأعمدة الصخرية تحملها لتتربع على ارتفاع أربعة آلاف متر عن سطح البحر.

كان المسافر القوي قد مشى أياماً وأياماً بين تلك السهول الشاهقة والمنعزلة والصامتة، التي تشبه عالماً ميتاً.

أحس المسافر بعاطفة قوية في تلك العزلة الجرداء، في منطقة كأنها بحر من الحجارة، توقف لمرات عدة، كي يستنشق الهواء الناعم الذي يأتي من الذرى العملاقة لتلك الجبال الجبارة وقممها الثلجية، تلمع في السماء الصافية.

نظر القروي المسكين إلى البعيد، حيث عاشت أجيال من الرجال صامتة لقرون، مثل صمت القمم الشاهقة. أجيال قديمة أكثر قدماً من "الإينكا" قد ضاعت هنا في أزمان مشاعيّة بلا ذاكرة.

ومن بعيد، رأى المسافر نقطة سوداء، بدأت تكبر وتكبر مع المسير، وفيما بعد انفلقت النقطة، وأفضت عن رجل هندي. اقترب المسافر من الهندي وسارا معاً بصمت في التربة الوعرة.

مشيا كثيراً، ووصلا إلى هناك، حيث الأرض تنحدر بمنحنى عنيف، حتى جرف عميق وواسع قريباً من سور الجبال المائلة، وكأنها مضطجعة على المنحدر.

ومن عمق الحفرة الكبيرة الضخمة، خَرجت مثل حكاية عجيبة مدينة السقوف الحمر بأعمدة بيضاء، وبشجرات جذورها ضخمة، وبيوت وشوارع تتفرع وتتفرع على جنبات الطريق والسور، إنها لاباث "la paz"؛ *

* z حرف الزين يلفظ ثاء بالأسبانية (المترجم).

مدينة عمرها مئات السنوات هي أعلى العواصم في العالم، أعلى من أربعة آلاف متر فوق سطح البحر، مقامة على صحن رائع، وساحر محاط بقمم الجبال والذرى التي تشبه عرف الديك.

أشار الهندي بإصبعه إلى المسافر عن المدينة وعن الجبال المقدسة، وكانت عيناه تشعان بضياء ذاكرة القرون، ذاكرة العرق البشري الذي تسري فيه دماء الإله "أيمارا"[١] (Aimara)، التي سالت في العصور الأولى لمنطقة الأنديز الشاسعة.

قال الهندي: "انظر يا أخي! عندما كان الإله "ويراكوتشا" (WirAkocha)" إله العمار يشيّد الحياة للناس في كل ما تراه عيوننا الآن، كان الإله "كجنو" (Kjuno) إله الخراب يلاحق خطوات الإله الطيب ويدمر كل شيء يبنيه".

شيد الإله ويراكوتشا مدينة من الحجر، فقذفها الإله كجنو بجبال من الثلج، فبنى الإله الطيب مدينة إضافية كي يحيا الناس، لكن إله الخراب كان يدمرها، ويدفنها بالقوة نفسها، عندها استدعى الإله ويراكوتشا إلهاً آخر لمساعدته هو "نيني" (Nine) إله القوة ورب النار. مادت الأرض وماجت غاضبة وحارقة وظهرت حلقة من البراكين لحماية الإله الطيب ويراكوتشا وعمله الصالح. لكن كجنو مدمر العالم بثلوجه، طلب في الحال حماية من "هوايارا" (Huayra) إله الريح. واستمر ويراكوتشا في كل الهضبة الرائعة يبني مدناً محاطة بجبال من نار، لكن عندما ينتهي ويغادرها وينطلق ليعمر مدناً أخرى، كان إله الريح ينفخ في البراكين ويطفئ لهيبها، ثم يأتي كجنو، متبوعاً بثلوجه ويعيد تدمير كل شيء، فتصارع الإله ويراكوتشا الذي يبني مع الإله كجنو الذي يدمر، واستمر الصراع وقتاً طويلاً.

وهكذا كانت المدن تبنى، محاطة بالبراكين، لتبقى فيما بعد خربة ومدفونة بالبرد.

تعب ويراكوتشا من تلك الحرب التي لا نهاية لها، ففكر بطريقة يحمي فيها أعماله من غضب خصمه، فقام بالتالي:

غرس بشكل قوي كعب قدمه الجبارة في تراب السهل الكبير، وهكذا شكّل ما تراه اليوم صحناً عظيماً، الذي أقام المدينة عليه لاحقاً.

هل ترى هناك دروع الثلج في كل القمم الجبلية؟ إنها جيوش الإله كجنو التي لا تزال تترصد رغم هزيمتها، فهم لا يجرؤون، ولن يجرؤوا أبداً على النزول إلى المدينة المحمية في هذه الحفرة، فلقد أطلق الإله ويراكوتشا عليها اسم

[١] من الآلهة التي تعتقد بها الشعوب الهندية التي سكنت أعالي البيرو (المترجم).

"ماركا" (Marka)؛ أي مدينة المدن. المدينة الأكثر ارتفاعاً، والأكثر قدماً لما كان وستبقى ملجأ للإنسان خلال قرون، ملجأ آمناً ومحمياً في المكان الذي حفره الكعب المقدس، وكان اسمها "لاباث"، (La Paz)؛ أي السلام.

صمت الهندي أمام عيون المسافر الغارق في التفكير، وعاد فيما بعد يحكي ببطء وبلهجة أكيدة وبذاكرة قديمة: "نحن نعرف كل شيء عن عالمنا هذا، عالم الجبال الذي لا يعرفه أناس آخرون. أقول لك الحقيقة، لأن الآلهة أرادت أن يرى الناس هنا كيف انخلقت هذه الروائع؟ انظر إلى هناك! إلى الجبل وقممه الجبارة البراقة من الثلج فوق مدينة السلام لاباث! انه "إيياماني" (Illimamni)؛ سيد الأنديز الأعظم بين النسور! وسأقول لك ما حدث".

– "في الوقت المظلم، ربما وتقريباً في الفجر الأول عندما كانت الأرض والجبال تتحركان ليأخذ كلّ منهما مكانه، جاء نسر الكوندور العظيم جداً ليحط على سلسلة جبال يراقب منها بناء الأنديز.

مرت شموس وأقمار كثيرة كانت تتجاذب لتجد لها مكاناً، وفي كل الأيام مع الغسق، عندما كانت تولد النجوم كان نسر الكوندور يطلق جناحيه الهائلين المشتعلين ليطير في الليل بإشعاع مذهل، وفي النهار كان يعود دوماً إلى الاختفاء عندما تأتي الظلال. هكذا استمر سنوات وسنوات وقروناً يتحرك من أجل بناء كل هذا العالم الذي تراه، وفي يوم من الأيام، عندما رأى ويراكوتشا إله العمل أن مهمته انتهت، وكانت كل الصخور والمياه والجبال قد بقيت كل في مكانه بثبات، أراد، وقرر أن يبقى الطير المشتعل المضيء الذي يراه الجميع، أن يبقى هناك أيضاً وإلى الأبد.

خفق نسر الكوندور العجيب بجناحيه الهائلين المنتشرين على قمم الأحجار، فسقطت الثلوج من السماء كأنها جبل من البياض البراق وله قمم عدة، تلك القمم الثلاث هي في الحقيقة: رأس الكوندور والأجنحة الهائلة التي لا يمكنها التحرك بعد".

مرة ثانية سكت الهندي أمام العيون الثابتة للمسافر، وبعد هذا عاد يقول وكأنه راوي الذاكرة المتقدة للهنود: "هناك أشياء أخرى نعرفها ولا أحد غيرنا يعرفها ما لم يكن قد ولد هنا. وإن كنت تستطيع استيعابي فاسمع هذه الحقيقة أيضا":

"عندما كان الزمن لا يزال ظلاماً، تضخمت الأرض كثيراً عدة مرات، حتى نجحت في المحاولة وخرجت من الماء، ونهضت إلى أن شكلت السلسلة الجبلية هذه. تحركت الجبال وجاهدت لتبقى عالية ومرتفعة وثابتة في المكان، بعضها بإكليل من ثلج، وبعضها من نار البركان، وبفضل تلك الأنوار كان الجميع يرونها كمحاربين أشداء وغريبين؛ إذ كان الزمان لم يزل ظلاماً، ويعمه السواد. أربعة من تلك الجبال تفوقت على ما تبقى بفضل قوتها، وكل واحد منها أراد أن يرتفع ويعلو أكثر ويمتاز بالضخامة، وعندما ذهبوا إلى ويراكوتشا كي يحكم بينها ويقرر. قال الإله لهم:

"لن يكون أحدكم أكثر قوة من الآخرين. سيكون هناك أسياد أربعة لسلسلة الجبال وهم:

سيد الضوء، وسيد الحجارة، وسيد الماء، وسيد الهواء.

سيد الحجارة وسيد الهواء اخترقا السماء بقممها الحادة، وسيد الضياء وسيد الماء اتسعا وتمددا مثل مناشير متعجرفة في الآفاق، وبما أن سيد الهواء يغار من سيد الماء، فقد قال في يوم من الأيام لسيد الحجارة الذي بدوره يحسد سيد الضياء بقوة: "توحد معي ضد سيد النار، فأنا سأقضي على سيد الماء".

وانطلق الاثنان يزمجران ضد خصميهما.

ودارت معركة كبيرة وشرسة بين الأبطال الأربعة المتحاربين، خاضوها بدون تعب طوال آلاف السنين، ولا يزالون يخوضون تلك المعركة، فالثلوج والنيران والرياح والصخور تتعارض بقوة في عواصف وأعاصير وحمم بركانية محترقة وكوارث طائحة. مزقوا بعضهم، وغرق بعضهم، لكنهم لم يموتوا وما زالوا يبزغون ويظهرون أكثر عنفاً وشراسة.

في النهاية تدخل ويراكوتشا وأقر الهدوء على الأرض الهائجة والمتحارب عليها، وأصدر إرادته: "يبقى الآن فقط ثلاثة أسياد في سلسلة الجبال هم: سيد الضياء، وسيكون اسمه من الآن فصاعداً "ايامفو" (Illampu) البرّاق المشرق، وسيد الماء، وسيكون اسمه من الآن فصاعداً "اييماني" (Illimani)" الرقراق المتلألئ، وسيد الحجارة، وسيكون اسمه من الآن فصاعداً "وايانا فوتوسي" (Wayana Potosi) الشاب الهادر الذي يجأر. وأما أنت يا سيد الهواء، فستدفع ثمن تمردك، لهذا ستبقى وحيداً في الأسفل.

أطلق الإله بمقلاعه الإلهي حجراً من ذهب على قمة الجبل المدببة، فقصها كما تقص قصبة سكر، وسوى مكاناً سديداً في قلب الجبل، وأما القطعة العلوية التي انشطرت عن القمة وهربت طائرة فقد قال الإله ويراكوتشا لها: أنت ابعدي ...

ابعدي أنت "ساهاما" أي المبعدة! هكذا أناديك بسبب تمردك. ومن تلك اللحظة بقي فقط ثلاثة آلهة في سلسلة الجبال هذه التي تراها الآن هي: "ايامفو" و"ايمباني" و "ايانا فوتوسي"، أما "ساهاما" التي هربت، فإنها موجودة بعيداً ووحيدة في الجانب الآخر من السلسة الجبلية، لكنها مغطاة بالثلوج متشامخة وعظيمة ورائعة".

وصمت الهندي، وأحجم صوته القديم، وأخذ يشير بإصبعه إلى القمم الساحرة التي لا تزال تلمع وتضيء كأنها ألغاز وأسرار عند الغسق.

الأركانوس (Arecunos)

مقدمة:

إلى الجنوب من تشيلي على شواطئ المحيط الهادئ تقع أرض "الأركانوس"، التي عاش فيها، في الأزمان الغابرة، رجال لهم سحنة رائعة، يحظون بالإعجاب والوقار.

ستة عشر زعيم قبيلة تقاسموا السلطة على "أرواكانا"، التي تمتد بين البحر وأعلى قمم الجبال.

عاش الناس فيها على خيرات تلك الأرض، يحرثون ويرعون أغنامهم. أما الأطفال، فكانوا يدربون في الطرق، حتى إذا أصبحوا سريعين جداً، فيكون بمقدورهم رعي الأغنام. وأصحاب العضلات الأ قوى كان يحتفظ بهم من أجل القتال، أو لحمل الفؤوس أو دبابيس الحرب الثقيلة، أو إعداد الرماح، أو إطلاق المقاليع المخيفة.

كان الأركانوس شعباً من رجال أغنياء أقوياء في العمل، أشداء أمام الجوع والبرد المجمد والحر الشديد، لم يكن هناك أبداً من يقدر على السيطرة عليهم وسلب حريتهم. فلا الملوك الأقوياء، ولا الشعوب الغريبة الأخرى، ولا القبائل المحاربة الشرسة، استطاعت أبداً احتلال السهول وجبال الأركانوس، ولم يقدر أحد من كل الطامعين أن يطأ الوادي العريض الغني بالفواكه والخيرات ومناجم الفضة والذهب.

كاوفوليكان (Caupolican)

في يوم من الأيام، ظهر خلف سلسلة الجبال بعض الرجال البيض على ظهر خيول لم يروها أبداً من قبل، لم تكن معروفة، كانوا مسلحين بحديد يلمع، يلبسون حديداً ويملكون الرعد والنار التي تخرج من المدافع والبنادق القديمة فتقتل.

أثار ظهور المقاتلين الأسبان مفاجأة وخوفاً كبيرين لدى الأركانوس الذين تساءلوا: هل هم آلهة؟

كانوا يقولون، ويصرخون، ويسألون: هل جاءوا من المياه؟ أية مراكب عجيبة وغريبة أقلتهم؟ إنهم يحملون الصواعق بأيديهم، ويركبون دوابّ سريعة مثل الريح، إنهم آلهة ... إنهم آلهة!

ولأول مرة تم غزو أراضيهم، ولأول مرة انتشر الرعب في قلوب الأركانوس، فعاشوا مستعبدين خانعين خاضعين لإرادة كائنات غريبة جاءت تبحث عن الذهب والفضة.

أخذ الغزاة البيض يتحولون إلى أفظاظ قساة، فجبروتهم وإساءاتهم وأفعالهم الشريرة جعلتهم ضعفاء وحاقدين.

ليسوا آلهة أيها الأخوة ... إنهم ليسوا آلهة – هكذا كان يصرخ نبلاء الأركانوس – إنهم أناس شريرون اضطهدونا وأذلونا وبمقدورنا أن نهزمهم، فلننهض إلى الحرب، نعلن الحرب والموت على هؤلاء الغرباء، فلن تكون هناك راحة وسلام في قلوب أطفال الأركانوس ما لم تنظف أرضنا، وتتحرر من هؤلاء الأبالسة.

وعم الاستنفار الجبال والسهول، والرسل تركض بين غابات الأركانوس من أجل تحميس الناس وتجميعهم، وزعماء القبائل يعقدون الاجتماعات الكبيرة للحرب، وهناك في السهل الكبير بين الجبال بدأوا يتجمعون: "توكفال" مع ألفين من المحاربين، "اونغولو" مع أربعة آلاف، "كايوكوفيل" مع ستة آلاف، "لينكوي" مع ثلاثة، "ليموليمو" و"تفورين" و"كولكولو" وآخرون مع آلاف

من المحاربين الشباب. غاب فقط "كاوفوليكان" القوي والحائز على إعجاب الجميع.

كانت المجادلات قوية وحامية الوطيس بين زعماء القبائل، ليقرروا من الذي سيقود الحرب ضد الغزاة فصرخ "كايوكوفيل":

– "عندي تحت الأوامر العدد الأكبر من المحاربين، وأنا مستعد لأجرب قوتي مع أي كان"، فقال "تفورين":

– "أنا جاهز للموت مع جميع رجالي، ولا أحد يتفوق علي في الشجاعة واستخدام السلاح".

صرخ المحاربون الآخرون معلنين حسناتهم، فشحذت المنافسة الهمم، والمجادلات كادت تتحول إلى نزاع بين الجميع، فتحدث "ليموليمو" الشيخ والحكيم وقدم نصيحته:

– "أيها الزعماء الشجعان، اتركوا سلاحكم الآن، فالأفضل أن يرفع ضد العدو، جميعكم متساوون بالنبل والقوة، امتحنوا قوة أذرعكم، وليكن الرئيس هو الذي يقدر على حمل الجذع الأضخم في غاباتنا على كتفيه من غير توقف أو استراحة".

أخذ جميعهم يمتحن أسباب الشيخ "ليموليمو"، الذي راح ينظر إلى الجبال بقلق، يرقب قدوم العظيم "كاوفوليكان".

أحضروا جذعاً ضخماً من شجر البلوط، حمله ستة رجال ذوي عضلات قوية، ومن شدة ثقله، أحضروه مجروراً على الأرض، وأبقوه وسط حشود المحاربين، الذين يحضرون المسابقة.

يأتي "فايكابي" شاب طويل قاسي اللحم، يحضن الجذع ويحمله، ويبقيه على كتفيه مدة ست ساعات.

و"كايوكوفيل" يستسلم قبل أن يصل إلى هذا الوقت، بينما "فورين" و"اونغولو" أبقياه طيلة نصف نهار.

أمّا "لينكويا" القوي، فيحمل الجذع بسلاسة على كتفيه العريضتين جداً، ويتمشى ويركض بالجذع، منذ أن خرجت الشمس لتشارك القمر نوره الساحر.

وعندما تصل الشمس إلى منتصف السماء، وتبدأ بالنزول نحو المغيب، يسقط الجذع عن أكتاف لينكويا القوية.

كلهم يصرخون: لينكويا انتصر!! فلتكن قيادتنا له!! فلـ"لينكويا" الحظوة في أن يكون المسؤول الأعلى".

وفي هذه اللحظات يأتي ويتقدم كاوفوليكان، يأتي وحيداً من غير محاربين يرافقونه.

كاوفوليكان: طويل، وقوي ومحارب متمرس، وخفيف الحركة وله هيبة قوية وصارمة، والجميع يقدّرون الأقوى والأنبل.

يأتي "كاوفوليكان" عندما تبدأ الشمس بالغروب، وكلهم يطلبون وقتاً للراحة، ويقررون تمديد المسابقة حتى اليوم التالي.

وعندما بزغ الفجر في أعالي الجبل حمل "كاوفوليكان" الجذع الثقيل على أكتافه الخارقتين.

يطلع النهار، وتعلو الشمس إلى منتصف السماء، وتختفي ثانية خلف الجبال، والليل يظهر النجوم و"كاوفوليكان" يروح ويجيء ببطء وبسرعة، دون أن يعطي إشارات تعب، تعود الشمس للطلوع، ويمضي نهار كامل، ويخرج القمر ثانية بطلعته البهية، ومرة ثانية يأتي الفجر، ليرى "كاوفوليكان" مع الجذع على كتفيه.

وفي نهاية اليوم الثالث، عندما تصل الشمس إلى نصف السماء يقفز "كاوفوليكان"، ويرمي الجذع الثقيل إلى بعيد، فتهيج الحشود بالانفعال: إنه الأقوى ... إنه الأقوى إنه "كاوفوليكان".

يضع الشيخ "ليموليمو" الفأس الحجري في يد المنتصر، ومن تلك اللحظة استعد الأركانوس للقتال تحت إمرة كاوفوليكان العظيم.

وبطولات كاوفوليكان في الحرب ضد الغرباء كانت كثيرة، وحفظت في الذاكرة، وغناها الشعراء كما غنوا مماته المفخرة من أجل حرية أرض أركانوس.

أرض الفضة (Guaranties)

هناك حيث تقترب مياه نهر الأروغواي، قبل أن تتجه إلى المصب العظيم الكبير للفضة في الأرض المقطعة بالجزر بين النهرين الكبيرين، كانت تعيش قبائل هنود الغوارانيين "Guaranias".[1] وعند وصول الغزاة البيض، كانت قبائل هنود الغوارانيين تعيش في المنطقة الممتدة من الأراضي المحيطة بـ"بوينس ايرس"،[2] إلى الغابات المحاذية لضفاف الأنهر شمالاً.

ومع الغوارانيين، كان الهنود الكيرنديس، "Querndies" وآخرون من الهنود يعيشون هناك، يصطادون الأسماك والطيور والحيوانات، وكان بعضهم يزرع الحقول، لكنهم كانوا جميعاً محاربين أشداء، كما قال عنهم الغزاة الذين خاضوا معهم معارك كبيرة وكثيرة في تاريخهم الموثق والمكتوب.

حكاية "اسافي" واحدة من حكايات الهنود الغوارانيين، وهي موجودة في مؤلف للكاتب الأرجنتيني "روي دياث دي غوثمان" (Ruy Diaz de Guzman) العام ١٦١٢م.

[1] من قبائل الهنود القدماء الذين يعتقدون بالإله غوارني، وتسكن هذه القبائل في المنطقة الممتدة بين انهر الفضة والجبال البركانية (المترجم).
[2] عاصمة الأرجنتين الحالية (المترجم).

الفتاة "اسافي" (Isape)

"اسافي" فتاة جميلة جداً، وهي ابنة رئيس القبيلة، وكان والدها الشيخ ينظر إلى فتاته بحنان كبير، كما يجب على الآباء أن ينظروا إلى أبنائهم غير السعداء.

كانت الشابة الهندية اسافي رائعة الجمال، وقد أتاها خيرة المحاربين لرؤيتها، والتقدم لخطبتها، لكن اسافي لم تعط إجابة للذين تحببوا إليها، فالفتاة الأكثر جمالاً في القبيلة لا تبادل الحب، لأنها كانت باردة وقاسية القلب.

لم تعشق "اسافي" ولم تطع أحداً، لهذا كانوا يتندرون ويطلقون عليها: "التي لم تبك أبداً!"، ولم ير أحد دمعة منها في عيونها السود حتى في أشد المعاناة. ففي أحد فيضانات نهر الأروغواي الذي أغرق الأرض، واقتلع الأكواخ والخوص، وأخذ إلى الأبد النساء والأطفال، رفع الشيوخ والشباب نحيبهم وأساهم إلى السماء، لكن اسافي لم تبك. كانت عيناها الرائعتان السوداوان تنظران إلى بعيد بلا مبالاة بآلام الآخرين، فبدأوا يفكرون أن اسافي هي سبب كل المآسي تلك، فقالت إحدى الساحرات: " دموع اسافي فقط تقدر على تهدئة غضب الآلهة!".

وتوالت المآسي، وفي إحدى المعارك مع قوم آخرين أقوياء وأشداء، كان على القبيلة أن تهرب، وتختفي في الجبال بعد أن وقعت الفتيات العذراوات الأكثر روعة في أيدي الأعداء، وسقط أشجع المحاربين قتلى، وتقلصت القبيلة إلى بضع نساء وحفنة من المقاتلين، الذين أنقذوا الشيخ الزعيم ولجأوا جميعهم إلى الغابة، ومن ضمنهم كانت اسافي، ولم يلمع الدمع في عينيها. فألقت الساحرة بيدها على طلاسمها وسحرها، علّها تتوخى النصيحة من الفلك والنجوم، وقالت بعد برهة: "كي تمر المصائب من جانبنا ولا تضربنا، يجب على اسافي أن تبكي! لكن كيف نجعلها تبكي؟ فالشيخ الزعيم يكنّ لابنته حباً كبيراً لا حدود له! فكيف يمكن جعلها تبكي؟ إذ أنها لم تكن قادرة على إظهار

أبسط علامات التعاطف مع مآسي الآخرين ومصائبهم! وهذا ما أراده الكهان والسحرة!

وجاء يوم الامتحان؛ امتحان الألم في داخل أعماق اسافي، فبينما اسافي تتمشى في أحد دروب الغابة، خرجت للقائها امرأة عجوز محنية الظهر، ترتجف، وبصوت فيه الكثير من الحسرة طلبت منها أن تقطع لها بعض الأغصان اليابسة لكوخها، حيث حفيدها مريض، ويكاد يموت من البرد.

نظرت اسافي إليها بازدراء، فركعت العجوز على ركبتيها، وطلبت منها، وتوسلت بصوت مفجوع، لكن الشابة الهندية تابعت طريقها!

بعد قليل، ظهرت لها امرأة لا تزال شابة، وعلى يديها طفل، والدموع في عينيها. اقتربت المرأة من اسافي، كانت ملامحها تشير إلى أنها موجوعة، ومفجوعة. وبصوت فيه الكثير من التوسل، كشفت لها عن الطفل الذي يحتضر، ورجتها أن تبحث لها عن بعض الأعشاب المفيدة القادرة على شفاء ابنها.

كانت اسافي تعلم أين توجد تلك الأعشاب، وفي أي مكان من الغابة، فتلك الأعشاب تطرد الموت، وكان بمقدورها أن تحضرها بمجرد أن تمشي قليلاً إلى جانب الطريق، لكن الشابة الهندية التي لا تعرف الألم تابعت مشيتها دون اكتراث.

وما أن مشت بضع خطوات حتى ظهرت قوة غريبة، جعلتها تتوقف، ومن خلف ظهرها سمعت صوت ساحرة القبيلة التي تقمصت الشيطان، سيد الأعمال الشريرة.

– "آنيا! يا سيد الظلال، اجعل هذه الفتاة الباردة التي لا تواسي عجوزاً ولا أمّاً، اجعلها أن لا تكون أمّا ولا عجوزاً أبداً!".

– "آنيا! يا سيدي اجعل هذه المرأة التي بلا قلب، والتي لم تبكِ أبداً، اجعلها تبكي مدى الحياة..".

– "آنيا! اجعل هذه المرأة التي كان عدم بكائها سبب المآسي، اجعلها تحيا إلى الأبد، تبكي ومن خلال بكائها تقدم الخير للآخرين".

اسافي لم تقدر على سماع أكثر من الكلمة الأولى للساحرة، وأخذت تتحول رويداً رويداً، إلى شجرة أقدامها تغوص في الأرض كجذور قاسية، وجسدها يتصلب مثل جذع الشجر، وصار شعرها أغصاناً مليئة بالأوراق.

وعند انتهاء الساحرة من طقوسها، كانت اسافي الجميلة الفاتنة الجمال قد تحولت إلى شجرة خضراء ورطبة، ومنذ ذلك الوقت وشجرة اسافي تعيش وتنمو في الغابات الاستوائية، هذه الشجرة الكريمة فاعلة الخير التي ينز من أوراقها ندى ناعم ومدرار يرطب الهواء.

اسافي الشجرة؛ التي تبكي دائماً من أجل حماية الآخرين ببكائها. فالرجل الذي يصل متعباً ومختنقا من الشمس يشعر أن الشجرة تمنحه العذوبة كهدية.

وتبقى تبكي، إنها اسافي، العذراء الهندية فاتنة الجمال التي كانت لا تعرف البكاء أبداً.

المرأة والفهدة*

في الأوقات التي كانت فيها مدينة "بوينس آيرس"[1] لا تعدو أكثر بقليل من حصن للجنود الأسبان، يعيشون فيه مع عائلاتهم إلى جانب أناس ليسوا بكثيرين، وقع هذا الحدث النادر والمثير للاستغراب، وبقي في ذاكرة الذين عايشوه أو سمعوه لوقت طويل. ففي تلك الأوقات، كان الذين يعيشون في "بوينس آيرس" يعانون من جوع قاس، حيث كان ينقصهم الطعام، فاضطروا لأكل الأعشاب وكل أصناف الحيوانات في الحقول، ووصلوا إلى حد من الجوع هدد أولئك الناس البؤساء بأن يأكل أحدهم الآخر.

آنذاك كان يحكم السكان طاغية، يفرض عليهم شروطاً قاسية، لم يحبه أحد منهم، فكلهم كانوا يعيشون حالة من الاستياء، وهذا يضاف إلى مرارة الجوع، وإلى بعض بلوى الوحوش المفترسة من النمور وفهود الأونزا،[2] التي أتت إلى الغابات القريبة من الحصن، وهددت بالتهام كل من يبتعد عنه.

كان الطاغية مسؤول المدينة، وتحت طائلة العقوبة بالموت، منع الناس من الخروج، فازداد الجوع ومات ناس كثيرون.

إحدى النساء الأسبانيات لم تقدر على تحمل معاناة تلك الفاقة التي لا تطاق، فعبرت السور الذي كان مبنياً للدفاع، ودخلت إلى أراض هندية علَّها تنقذ حياتها. مضت لوقت لا بأس به على غير هدى في الطريق، وكان عليها الاحتماء من عاصفة، فدخلت للاختباء في كهف وجدته في وهاد النهر، لكن فزعها كان كبيراً عند الدخول إلى الكهف، ووجدت نفسها أمام أنثى فهد كبيرة وقوية كانت ترتاح هناك في الكهف، ولرؤيتها فقط، فإن المرأة، سيئة الحظ، سقطت مغمياً عليها.

عادت إلى وعيها بعد وقت، وعندما نظرت إلى مكان الفهدة رأتها ملقاة تلعق بحنان كبير شبلين كانت تحميهما بين ساقيها.

---

* المقصود أنثى الفهد أو اللبؤة الأمريكية (المترجم).

١ عاصمة الأرجنتين الحالية. (سبق ذكرها).

٢ الوشق البري نوع من الذئاب بحجم الكلب الكبير يعيش في المكسيك وأمريكا الشمالية (المترجم).

نظرت الفهدة إلى المرأة وفي عينيها شيء يشبه وهج الحنان والعطف على الأشبال المولودين حديثاً، ولم تحس المرأة بنفسها إلا وقد قامت واقتربت من الأم وأشبالها، وأخذت تمرر يدها، وتداعب الأم والأشبال، وبعدها عاشت في ألفة صحبة الحيوانات الثلاثة.

لقد صارت المرأة الطيبة ترعى الأشبال عندما تخرج الأم الفهدة لتعود بلحم صيد للجميع.

لكن في يوم من الأيام خرجت المرأة لتطفئ عطشها من ماء النهر، فأفزعها بعض هنود الكيرنديس/Querandies الذين كانوا قد خرجوا إلى الصيد هناك، فأخذوها معهم إلى قبيلتهم.

في هذا الوقت، خرجت مجموعة من الجنود الأسبان، يبحثون عن الأكل من القبائل المجاورة، فوجدوا المرأة أسيرة عند الهنود فأنقذوها في اللحظة المناسبة، وأخذوها إلى مسؤول حصن "بوينس آيرس" الذي لم يرها جيداً، فأمر أن تلقى إلى الوحوش ليقطعوها ويأكلوها.

أخذها الجنود إلى الخارج، وتركوها مربوطة جيداً إلى شجرة على بعد فرسخ من القرية، وفي تلك الليلة أتى رهط من الوحوش إلى المرأة الغنيمة، ومن بينهم الفهدة التي كانت المرأة قد عاشت معها.

وعندما رأت الفهدة المرأة اقتربت إلى جانبها، ولم تسمح لأي وحش بالاقتراب منها، وبقيت تدافع عنها طيلة تلك الليلة واليوم التالي بليلته حتى اليوم الثالث.

ذهب الجنود إلى هناك بأمر من القبطان ليتأكدوا من موت المرأة، وبدهشة كبيرة رأوها لا تزال على قيد الحياة والفهدة عند قدميها مع الشبلين.

ابتعدت الحيوانة الوفية قليلاً عندما رأت الجنود، وأفسحت لهم الطريق كأنها أشارت إليهم أن يصلوا إلى المرأة، ويفكوا وثاقها حيث فعل الجنود ذلك، وهم معجبون بذكاء وإنسانية تلك الوحشة.

وبعد أن فك الجنود وثاق المرأة أخذوها معهم ليعفوا عنها، بعد تلك المعجزة التي رأوها، وبقيت الفهدة تصدر إشارات وحركات، وتزأر بحزن كأنه تعبير عن الإحساس بالوحدة! بينما كانت المرأة تبتعد وتلتفت إلى الوراء وفي عينيها دموع الشكر والامتنان للفهدة الطيبة.

الكتاب الثاني:

أَسَـاطِيرُ النّـار

أمريكا الشمالية

الفتى وذئب الكويوتي *

هذا ما يحكيه الأمريكيون أصحاب السحنة الحمراء، وقد حدث منذ سنين غابرة.

في تلك الأيام البعيدة، حيث كان الناس فيها يفهمون لغة الحيوانات، التي كان منها كلب الصحارى، الذئب الأمريكي الخبيث المحتال، الرمادي اللون كان صديقا طيباً للهنود، وقد أسموه كويوتي.

في قبيلة هندية كان يعيش فتى له ساقان قويان مطواعان، وله نظرات ثابتة وثاقبة.

كان يعيش وسط القبيلة، لكنه كان يكثر القفز بين الغابات، ويصعد إلى قمم الجبال، وكان يخوض في الأنهر، لا يفارقه صديقه حيوان الكويوتي "Coyote"، رفيقه في الصيد وحتى في المنام.

وفي مرات كثيرة توقف لينظر كيف كان الرجال يحشرون الأسماك بين شقوق صخور النهر، وكيف كانت النساء يقتلعن جذوراً طازجة، ويحفرن الأرض بأحجار مسننة، كان ذلك في أيام الربيع الدافئة والطويلة، لكن عند حلول الشتاء كان الناس يتراكضون بين الثلوج يهربون من البرد وكأنه عدوهم، فكانوا يغرقون يائسين في أعماق الكهوف المظلمة.

كان الشاب الفتي ينظر بوجه قاسٍ، وهو يفكر بحسرات شعبه البائس الذي لا حول له تحت السماء المثلجة، فقال للحيوان الكويوتي: "أنت لا تحسّ بسكاكين البرد لأنك سمين، ولك جلد كثيف الشعر، أمّا هم فإنهم يرتجفون ويموتون، قل لي يا صاحبي وأنت الذي تقود خطواتي في الصيد، قل لي ماذا علي أن أفعل اتجاه شعبي كي لا يعاني أكثر؟".

---

* Coyote.

قال الكويوتي: "لا شيء!". وفي تلك الليلة لم ينم إلى جانب صاحبه، ولم يعد إلى جانبه إلاّ بعد انقضاء عدة أيام بلياليها الطويلة. عندئذ قال الكويوتي: "أنا أعرف ماذا عليك أن تفعل، لكنه صعب جداً وأكثر صعوبة من أي شيء، كنت قد فعلته، ولن تقدر على فعله أبداً".

فأجابه الفتى: "قل لي ما هو؟ فأنا قادر على فعل كل شيء ما لم يكن مستحيلاً!".

قال الكويوتي: "اذهب إلى جبل النار لتسرق قبسات من ذلك الوهج، وتحضره إلى شعبك".

سأل الفتى: "وما هي النار؟ وما هو الوهج؟".

أجاب الكويوتي: "النار مثل وردة حمراء، لكنها ليست وردة، إنها تركض بين الأعشاب، وتقضي عليها كما لو كانت دابة، لكنها ليست دابة مع أنها قوية ومريعة، لكنها تتمدد على سرير بين الحجارة، وتقدم الأشجار أغصانها لها لتأكل، إنها أخٌ طيبٌ يداعب النسمات والأشياء بألسن كبيرة وبرّاقة وساخنة. وإذا أمكنك إحضارها، فإن شعبك سينعم بالدفء، ويخبئه كما لو أنك تخبئ قطعة من الشمس".

قال الهندي: "نعم سأحضر تلك النار، ساعدني".

اتجه الفتى نحو شيوخ القبيلة ليطلب مائة رجل لهم أفخاذ قوية وعضلات وسيقان خفيفة الحركة. فاصطفوا جميعهم في طابور، يوجههم الكويوتي نحو جبل النار، وانطلقوا راكضين.

مع انتهاء اليوم الأول، تركوا في الطريق الرجل الأقل مقدرة على الركض فيهم. وكان عليه أن يرتاح هناك، وينتظر، ومع انتهاء اليوم الثاني من الركض ابقوا رجلا آخر ليرتاح وينتظر، وهكذا بدأوا يتناقصون واحداً تلو الآخر مع نهاية كل يوم من الأيام المائة للمسيرة.

أمّا الشاب ذو الساقين القويتين والملبيتين له برفقة الكويوتي، فقد بقي هو والكويوتي وحدهما إلى المرحلة الأخيرة من المسير، عَبَرا السهول، وواجهتهما الجبال، وفي النهاية وَصَلا سوية إلى النهر الكبير الذي يجري فوق رمال جميلة عند سفح جبل النار.

كان الجبل يصل الغيوم، وكان في قمته شيء يشبه قبعة كبيرة من الدخان الكثيف.

في الليل، كانت أرواح النار تتراكض، وترقص في المجنبات على هيئة

جذوات كبيرة، بينما كان النهر الكبير يلمع كما لو أن مياهه قد اشتعلت.

قال الكويوتي للفتى: "انتظرني هنا، سأذهب لأحضر لك قبساً من وهج الجبل، انتظرني وكن مستعداً ويقظاً لأنني سأصل منهكاً، وعليك أن تتابع راكضاً، إذ أن أرواح النار سوف تلاحقك".

وبدأ الكويوتي يصعد الجبل ويختبئ خلف الأحجار، لكن أرواح النار اكتشفته، وعندما رأوه نحيفاً ومتسخاً سخروا من رائحته غير العدوانية.

لكن عند حلول الليل، وعندما بدأت الأرواح بألعابها ورقصاتها في ألسنة اللهب الكبيرة، تمكن الكويوتي من أخذ لسان كبير وطويل، وهرب به هابطاً الجبل بسرعة. وبطريق مستقيم كانت ألسنة اللهب تركض خلفه، تصدر زئيراً كأنه زئير لبؤة تحترق.

رأى الشاب صديقه الكويوتي يهبط الجبل مثل نجمة تهرب من السماء، كانت أرواح النار تتبعه كأنها نهر من الوهج، وراح يتساءل: "هل يقترب القبس المشتعل؟ هل يقترب؟ هل يصل؟".

وقع الحيوان الشجاع أرضاً، يكاد يختنق، وقواه تخور، فأخذ الشاب ذلك القبس المشتعل وبدأ بالركض والركض، وأرواح النار في الجذوات تركض خلفه، والفتى يتابع الركض، ويمضي مثل سهم، كي يصل إلى الرجل الأول، الذي تركوه يستريح وينتظر، ويده ممدودة ليستقبل الجذوة، ويبدأ الركض بها سريعاً كسهم انطلق من قوس.

وهكذا تستمر الجذوة من يد إلى يد دون توقف، وأرواح النار تركض خلف الشعلة المسروقة، إلى جبال الثلج التي لا يقوى الناس فيها على البرد.

استمرت النار في الهواء تنتقل من يد إلى يد بين الراكضين، فكانت صفراء وجميلة في النهار، وفي الليل حمراء رائعة.

وصلت الشعلة إلى الرجل الأخير، ومنه إلى القبيلة، وهناك صنع الرجال لها سريراً من الأحجار وسط المغارة، بدأوا يطعمونها بحب، يقدمون لها الأغصان اليابسة، ومنذ ذلك الوقت ابتهج الناس بتلك الشعلة عدوة البرد، والفتى الهندي النبيل أصبح معروفاً من قبل الجميع. إنه الشجاع الذي اكتشف النار.

والكويوتي، أيضاً، منذئذ يمكنه أن يعرض وإلى الأبد آثار عمله المعطاء، وحتى هذا اليوم تحتفظ سلالة الهندي بالجلد الأصفر، وكيف احتمى بالنار كذكرى لمأثرته الشجاعة

نيوزيلندا

"مانوي" الذي أحضر النار

عن البطل يتحدثون، عن مآثر عجيبة ليست من صنع البشر، كان مانوي هو الذي أخرج جزيرة نيوزيلندا الكبيرة من أعماق البحر، وتركها على سطح المياه في المكان نفسه الذي تقع فيه اليوم.

كان مانوي هو الذي اخترع ناباً للحربة كي تطبق جيداً على الأسماك، وكذلك اخترع سلة بها فخ كي يحشر سمك الحنكليس.

كان مانوي هو الذي أحضر النار إلى الناس، وهو الذي جعل اليوم يطول بما يكفي كي يتمكن الناس من العمل جيداً.

ومانوي فعل أشياء خيرة كثيرة للناس، وهي أشياء لا يمكن تعدادها لكثرتها.

عندما ولد مانوي كان بشعاً ومشوهاً، فتركته أمه عند شاطئ قاحل، لكن آلهة البحار حمته، و"تامانويكي تي رانجي" وهو أحد أجداده السالفين، كان في السماء، فأخذه إلى هناك، وعلّمه كلّ الأشياء غير الطبيعية التي كان يعرفها، وهكذا كان.

عندما شبّ مانوي عاد إلى الأرض ليبحث عن عائلته، وعند وصوله عثر على إخوانه وهم يلعبون بالحراب عند شاطئ البحر، وعندما شاهدوا الفتى البشع انفجروا جميعهم بالضحك، لكنه قال لهم: "لماذا تضحكون؟ ألا ترون إنني أخوكم الصغير؟" لكنهم لم يصدقوه، وكذلك أمهم التي قالت له: "أنت لست ابني!".

فأجابها مانوي: "ألا تذكرين عندما تركتيني في ذلك الشاطئ القاحل؟".

– آه! نعم، صحيح، لقد نسيت! أنت مانوي! قالت الأم وهي نادمة لكن سعيدة في الوقت نفسه من عودة ابنها ورؤيتها له. فبقي مانوي مع أهله.

وعندما صعد أشقاؤه إلى القارب الصغير بهدف الصيد، قال لهم: "أريد الذهاب معكم"، لكنهم رفضوا قائلين: "لا، إننا لا نحتاجك".

لكن أخوة مانوي كانوا يصطادون بشكل قليل، إذ أن الحراب لم يكنٍ لها أنياب كي تطبقها على الأسماك، فعلمهم مانوي كيف يصنعون حراباً في طرفها أنياب لا يمكن إن تفلت الأسماك منها.

في يوم آخر، ذهب الأخوة لاصطياد الحنكليس، لكنهم اصطادوا الشيء القليل، إذ أن أسماك الحنكليس كانت تخرج منٍ الباب نفسه الذي دخلت منه في سلال الصيد، عندها اخترع مانوي فخاً في باب سلة الصيد، كي تدخل أسماك الحنكليس ولا يمكنها الخروج.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أخوة مانوي لم يحبوه، ولم يرغبوا في أن يذهب معهم في الزورق، لكنه في يوم من الأيام اختبأ مانوي في قاع الزورق، وتَغَطّى بألواح الأرضية، وعندما كانوا في أعالي البحار قال أخوته: "ما أحسن أن نمضي من غير مانوي!".

لكن صوتاً قد خرج من القاع يقول: "إنني هنا! ورفع مانوي الألواح، وخرج. فغضب الأخوة كثيراً ولم يرغبوا بإعطائه صنارة كي يصطاد.

لكن مانوي لم يغضب، وبدأ يصطاد بصنارة سحرية كان يخبئها معه، وكانت مصنوعة من فك أحد أسلافه القدماء.

لم يرغب أخوته بإعطائه طعماً، عندها أدخل مانوي رأس الصنارة في أنفه، وبللها بالدم، ثم رمى بها إلى الماء.

لم يكن أحد من الأشقاء قد اصطاد شيئاً، وقد اعتقدوا أن مانوي لن يصطاد أيضاً، لكن مانوي انتظر حتى ينزل شص الصيد إلى الأعماق أكثر.

قال أخوانه له: "لماذا أنت هكذا عنيد جداً؟ لا يوجد هنا صيد! هيا نذهب إلى مكان آخر!".

ضحك مانوي وبقي ينتظر، وفجأة أحس بحركة شد قوية في الخيط الذي جعل الزورق الصغير يكاد ينقلب.

ثبّت مانوي الحبل بقوة، وساعده أخوانه بذلك، ورويداً رويداً بدأ يصعد شيء مرعب من الأعماق، وعندما وصل إلى السطح بقي أخوة مانوي مشدوهين، إذ إن ذلك الشيء كان كبيراً جداً، غطى كل مساحة البحر على مد النظر، ولم يكن ذلك أقل من "تي- اكا - آ - مانوي"؛ أي السمكة التي اصطادها مانوي، وهي جزيرة نيوزيلندا الكبيرة.

قفز أخوة مانوي فوق الشيء المريع، كي يقصوا منه قطعاً من اللحم، لكن كل مكان غرسوا سكاكينهم فيه، تحول إلى وهاد، وفي كل مكان سلخوا الجلد منه، تحول إلى جبال. وهكذا انولدت نيوزيلندا من أعماق المياه التي أصبحت لاحقاً أرض الماوريين/Maories.[1]

ومع مرور الوقت، انتبه مانوي إلى أن النهار كان قصيراً جداً، و"تامانويتيرا" أي الشمس كانت تنهض، وتجوب السماء بسرعة، وتعود من غير أن تمنح وقتاً كافياً للناس، يمكنهم من إتمام أعمالهم.

فكر مانوي أن عليه أن يجبر الشمس على أن تسير ببطء أكثر، فقال مانوي لإخوانه: "فلنربط الشمس كي تسير ببطء، وهكذا يكون للناس وقت أطول كي يتموا أشغالهم".

فردّوا عليه: "كيف لنا أن نفعل ذلك؟ ألا ترى أن الشمس تحرق كل من يقترب منها؟".

فقال مانوي: "لقد رأيتم ماذا أمكنني فعله، ألم أرفع جزيرة تي- اكا - آ- مانوي من البحر؟ وكذلك بإمكاني أن أفعل أشياء أخرى، بل أشياء أعظم أيضاً".

اقنع مانوي أشقاءه، واقتلع خصلة من شعر رأس أخته "هينا/ Hina"، وبحث عن أربطة من حرير أخضر، حتى يتمكن إخوانه من ضفر الخيوط بقوة.

تذكر مانوي ما كان قد علمه إياه سلفه الذي كان في السماء، وكيف تكون للأوتار قوة سحرية فائقة.

صنعوا بتلك الخيوط شبكة كبيرة، حملوها ومخروا حتى نهاية العالم إلى المكان الذي تخرج منه الشمس كل صباح، استغرقوا شهوراً عدة في الوصول إلى نهاية العالم، ووصلوا إليه في ليلة مظلمة، عندها علقوا الشبكة أمام الحفرة التي كانت الشمس ستخرج منها.

عند الصباح خرجت "تامانويتيرا"، ووجدت نفسها مطبقاً عليها في الشبك السحري. حاولت أن ترخيها، ولم تستطع، كان الأخوة يمسكون الشبكة بقوة وثبات، وربطوها بأوتار جديدة.

كانت الشمس تنتفض على الجانبين تريد أن تقفز، وحاولت تقطيع

[1] تطلق على سكان جزر نيوزيلاندا في الاقيانوس (المترجم).

الحبال، لكن الحبال كانت قوية جداً. عندها تقدم مانوي حاملاً عصاه الحربية المصنوعة من عظم أحد أسلافه، وبدأ يضرب الشمس، لكنها أخذت تقاوم، وبدأت تنشر جرعات كبيرة وساخنة جعلت الأخوة يتراجعون، لكنها لم تجعل مانوي يتحرك من مكانه، وهكذا استمر الصراع بينهما، وكانت الشمس تصرخ:

– "أنا تامانويتيرا الجبارة! لماذا انتم ضدي؟".

– "لأنك تجوبين السماء بشكل سريع جداً، والناس لا يوجد عندهم الوقت الكافي للبحث عن الأكل وهم جياع".

– "وأنا، أيضاً، لا يوجد عندي الكثير من الوقت لأضيعه!" أجابت تامانويتيرا.

عندها استمر مانوي بالضرب، حتى وهنت الشمس واستسلمت. عندها قالت:

– "كفى من فضلك، سأمشي بشكل أقل سرعة".

ومقابل هذا الوعد سمحوا لها بالخروج من الشبكة، وهي أوفت بوعدها.

ومنذ ذلك اليوم تعبر السماء ببطء، وأصبح للناس وقت أطول لتجفف ملابسها، وتحصل على قوتها، لكن بعض الحبال التي ربطوا الشمس بها بقيت ملتفة عليها، ويمكن رؤيتها كأشعة تومض، وهي تخترق الغيوم. كل هذه المآثر، أنجزها مانوي، لكن شعبه لم يكن يعرف أبداً كيف يشعل النار.

قرر مانوي أن يكتشف سر مناطق النيران. عندها نزل في حفرة وجدها في الأرض، وكانت فيها "مافويكي" آلهة النار، فطلب مانوي منها جذوة، فأعطته أحد أظفارها المشتعلة، فخرج مانوي بالظفر وفكر: "هذا لا ينفعني، إنها نار حقاً! لكن أهلي مهتمون بمعرفة كيف يشعلون النار لهذا أطفأ الظفر المتوهج في تيار ماء، وعاد يطلب النار مرة ثانية.

أعطته مافويكي ظفراً مشتعلا آخر، لكن مانوي أطفأه وعاد يطلب النار من آلهة النار، وللمرة الثالثة أعطته مافويكي ظفراً مشتعلا آخر، فأطفأه مانوي في تيار الماء نفسه، وللمرة الرابعة عاد يطلب النار من آلهة النار، وللمرة الخامسة أعطته ظفراً مشتعلاً.

وأعاد مانوي الكرَّة تسع مرات، إذ أطفأ النار في الماء تسع مرات، وعندما جاء للمرة العاشرة إلى آلهة النار وطلب منها آخر أظفارها المشتعلة قبضت عليه، ودفعته مافويكي إلى النار بشكل قوي، لكن مانوي تمكن من الإفلات بسرعة كبيرة، ولم تتمكن من الإمساك به، وأثناء هربه كان يشتمها

حتى اشتاطت غضباً فاقتلعت آخر أظفارها المتوهجة وألقتها كي تصطاده.

أحدث الظفر ناراً في الحقول وفي الغابات، وكان على مانوي أن يهرب أمام تقدم ألسنة اللهب، وفي النهاية طلب مساعدة المطر الذي هطل بسيل جارف، حتى أطفأ الحريق الكبير.

وعندما رأى مانوي أن آخر نار في العالم تكاد تنطفئ، التقط بعض الجمرات، وخبّأها داخل أشجار الغابة. وهكذا بقيت النار في العالم.

اليونان

بروميثيوس والنار

في البلاد التي نسميها اليوم اليونان، وقبل قرون من الزمن، كان قد عاش فيها شعب الهيلينيين أو الإغريقيين القدماء. وهو من أكثر الشعوب حكمة في ذلك التاريخ القديم.

في تلك البلاد يوجد جبل عالٍ تختبئ قمته بين الغيوم، سماه الإغريقيون، آنذاك، بالجبل الأولمبي، وقد تخيلوا أن قمة الجبل كانت بمثابة السماء، التي خلقتها الآلهة الجبارة التي كانت تعيش في هذه القمة.

كان زيوس بمثابة الملك، وسيد جميع تلك الآلهة. كان الإله الأعظم والأكثر جبروتاً، فعندما يغضب، يطلق الرعود والصواعق فوق الأرض، فيختبئ الناس وهم يرتجفون من الخوف، والآلهة أيضاً، كانت ترتعد خوفاً.

كان زيوس قد اتخذ من جبل الأولمبي مملكة له، يحيط به مجلس كبير من الآلهة مؤلف من: زوجته هيرا (Hira) الإلهة الملكة وأولادهما، وفيبو (Febo) إله الشمس، وإله الموسيقى والشعر، والآلهة ارتميسا (Artemisa)، الإلهة القمر إلهة الصيد وحامية الشباب، وبلاس أثينا إلهة الحكمة، وآرس إله الحرب، وحادس إله الثروات، وافروديت إلهة الحب والجمال، وهيرميس[1] إله التجارة، وآلهة أخرى كثيرة.

بين تلك الآلهة الكثيرة والكائنات فوق الطبيعية التي عاشت في جبل الأولمب، كان بينها بروميثيوس العظيم، الذي تجرأ على تحدي الإله الملك المرعب.

كان بروميثيوس واحداً من الذين خُلقوا على الأرض قبل أن يُخلق الناس بكثير من الزمن. وهو من كان مسؤولاً عن خلق الإنسان

[1] هذه الأسماء أطلقها الرومان على الآلهة الإغريقية: زيوس(جوبيتر) وهيرا (جونو) وفيبو (ابولو) ارتميسا (ديانا) بالاس أثينا (مينيرفا) آرس (مارتي) حادس (بلوتن) افروديت (فينوس) هيرميس (ميركوري).

نفسه، فقد أخذ بروميثيوس حفنات من تراب اليونان، وعجنها بالماء، فصنع شكل إنسان، وصنع له قواماً للهيئة البشرية، وأعطاه الحياة والقوة كي يمكنه من مضاعفة نفسه، وفي حين تخفض الحيوانات رؤوسها لتنظر إلى الأرض، فقد جعل الإنسان يرفع رأسه لينظر إلى السماء.

أحب بروميثيوس الناس الذين خلقهم، وسخر لهم خير الأرض وكل ما يمكن أن يمنحهم السعادة. لكن ما أشعر زيوس العظيم بالاهتياج أن بروميثيوس فضّل الناس بمعاملته، فلقد أرادهم زيوس خانعين وبائسين، وكان يرغب في ألا تكون لهم أية قوة لأن يجرؤوا في يوم ما على التفكير في الاستيلاء على مملكته.

لكن بروميثيوس كان سعيداً، وهو ينظر إلى الناس وهم يواصلون حياتهم، وكان على أتم الاستعداد لخدمتهم حتى لو تحدى زيوس وأثار غضبه في سبيل ذلك.

فكان يراهم وهم يروحون ويأتون نشيطين، سعيدين، ولكن عندما جاء الخريف وأطلق أول برد الشتاء صَفيرَه، رأى بروميثيوس الناس وقد كفّوا عن الفرح، رآهم يرتجفون ويظهرون علامات الأسى.

فقد كانت للحيوانات جلود سميكة كثيفة الشعر، وبإمكانها أن تلجأ إلى كهوف الأرض، لكن الإنسان لم يتمكن من حماية نفسه وكان يعاني.

تأثر بروميثيوس بآلام المخلوقات التي خلقها. فكّر أن يحضرها إلى الأولمب الذي لا يقربه فصل الشتاء، لكن زيوس كان هناك، ولم يكن يسمح بدخول المخلوقات البشرية، وأحس أن عليه أن يفكر في طريقة أخرى لمساعدة البشر.

فكر وفكر، وجاء يذّكر إله البركان هيفايستوس، (Hefaisto)، أحد أبناء زيوس المعاقبين في العمل في أحد أكوار الحدادة الكبيرة جداً على الأرض، حيث كان يصهر الصواعق والسلاح لوالده.

قال بروميثيوس: "أجل، يمكن للبركان أن يمنح القليل من نيران المرجل".

خرج بروميثيوس ليلاً من جبل الأولمب، وأخذ يهبط من نجمة إلى نجمة كي لا يكتشف زيوس أمر مغامرته.

وعندما وصل إلى الأرض، بحث عن كهف عميق بجانب البحر، وعبر مغارة بين الصخور أخذ ينزل وينزل زوايا حجرية، وهو يبحث عن كور الإله، وفي نهاية الطريق المعتم ظهرت شرارة من النار، لقد وصل، وقف أمام البوابة الضخمة لمحددة البركان ونادى بضربات قوية، انتشرت بين ضجيج السنديان والمطارق، فانفتحت البوابة وتفاجأ البركان عندما رأى بروميثيوس. كان

بروميثيوس يعلم جيداً أنه يمنع على البركان أن يوقف نيران الآلهة، لكنه حاول أن يؤثر على قلبه، فقال له: "لقد خلقنا الناس، وهم يعيشون هنا، ويعبدون زيوس، لكن فصل الشتاء قد حلّ، وهم يعانون ويموتون من البرد، ولا يمكننا تركهم بلا رحمة!".

– "نعم!"، أجاب البركان "حقاً! ما تقول، لكنك تعلم جيداً إننا لا يمكننا فعل أي شيء من أجل إنقاذهم من غير أن يقول زيوس ذلك!".

وتابع البركان يصهر الأحمر الحيّ يحوله إلى صاعقة سماوية.

في تلك اللحظة تظاهر البركان بأنه منهمك في عمله، وبسرعة أضرم بروميثيوس شعلة نار، وهرب بها وسط العتمة بين الصخور.

لحق الناس ببروميثيوس وأحاطوه، وهو يحمل وهجاً في قبضة يده، فقدم لهم النار عدوة البرد، وقال لهم: "يمكنكم أن تحافظوا عليها، وتبقوها حيّة بأن تقدموا لها أغصان الأشجار اليابسة".

ارتفعت صيحات وأغاني الامتنان لصديق الناس الذي أحضر لهم الوهج الذي يعطي الضياء والدفء، ويصهر المعادن لتصب على شكل محاريث وأسلحة وأدوات صيد ونقود.

اشتاط زيوس غضباً عندما علم أن الناس امتلكت النار، وهو الذي كان قد أقفل عليها في جوف الأرض، فهبط إلى السرداب ليسأل البركان:

"هل كنت أنت من منح النار التي أعطيتك لتخبّئها؟".

أجاب البركان وهو يتمنى أن لا ينكشف أمر بروميثيوس، قائلاً: "لا! لا، لست أنا! فأنا من عمل واشتغل عندك، فصنعت لك أجمل الأسلحة التي لم يكن أحد قد صهرها من قبل، تعال ومتّع نظرك بهذه الأسلحة". لكن زيوس لم يتوقف عن سؤاله حتى يعرف الحقيقة، وقال للبركان:

"أطعني الآن! اصهر السلاسل الأكثر صلابة من نيران الكور هذه، سوف أقيّد بروميثيوس بها هناك على صخرة في أقصى الأرض، وسوف يقوم أحد طيوري الجوارح، وليكن النسر، بتعذيبه ليلاً ونهاراً وإلى الأبد".

وعاد زيوس إلى الأولمب، بينما بدأ البركان بصهر السلاسل، ولما انتهى أخذها إلى صخرة كبيرة في القوقاز، حيث كان هناك ينتظره رُسُل زيوس ومعهم بروميثيوس.

ثقب البركان الصخرة الكبيرة، وثبّت فيها الحديد، وربط السلاسل في زندي بروميثيوس وعقبيه، وأدار الإله البركان رأسه وابتعد بخطوات طويلة حتى لا يرى البطل وهو يتعذب.

وبقي بروميثيوس مقيداً بالسلاسل، ووجهه مرفوعً نحو السماء، وفوق الصخرة بدأ طائر النسر يحوم، كي يلتهم أحشاءه يوماً بعد يوم.

كان بروميثيوس على ثقة بأنّ الناس لن تعاني من البرد بعد الآن، وهذا ما كان يواسيه في عذابه، فلم يدع الألم يهزمه، ولم يفقده الأمل بالحرية.

وفي يوم صادف فيه أن مرّ هيركوليس، (Hercules)[1] بالقرب من الصخرة التي قيد بروميثيوس عليها، ورأى كيف كان النسر يهبط ليلتهم الكبد من الصدر المفتوح للرجل العظيم غير القادر على الدفاع عن نفسه، فأحسّ بالغضب من قسوة التعذيب.

استل هيركوليس قوسه الضخمة، ووضع السهم القويم وأطلقها على قلب النسر، ثم صعد إلى الصخرة وبذراعيه الجبارتين حطّم سلاسل القيود، لكن إحداها بقيت عالقة في قدم بروميثيوس وبها أيضاً القاعدة التي ثبتت مع قطعة من حجر الصخرة.

قال بروميثيوس له: "لقد أَمضيتُ هنا سنوات وسنوات إلى أن جئت أنت. قل لي يا هيركوليس كيف يمكنني مكافأتك؟".

اصطحب بروميثيوس هيركوليس ليريه إحدى مآثره، إلى حيث يعيش الناس كي يساعدوهم ويسرّوا برؤيتهم.

لكن، ومن وسط الأولمب، رأى زيوس بروميثيوس حراً طليقاً، فغضب، لكنه ظنّ أنّ قراره قد تم تنفيذه، إذ أن البطل كان يجر السلسلة وهي مثبتة بقدميه، وكذلك كان القيد مثبتاً بقطعة الصخر. وعاد بروميثيوس إلى الأولمب، ليواصل حياته مع الآلهة، لكن على الأرض، لم ينسه الناس أبداً. ففي كل سنة يقيمون احتفالاً على ذكراه، حيث الشباب الأكثر قوة والأكثر سرعة بالركض يتناقلون في قبضاتهم جذوة مشتعلة، ويركضون بها في المدن الإغريقية، في احتفالات سباق تخليدية للبطل الذي جلب النار، وتكريماً لصديق الناس المثال الأعلى للتمرد على الجور والطغيان.

---

[1] رمز القوة الجسدية (المترجم).

الكتاب الثالث:

شجرة الخبز

اليابان

اليابان هي إحدى روائع جزر المحيط الهادئ، وهي أرض ممتلئة بمناظر طبيعية خلابة وبالحدائق والهضاب الناعمة وبفوهات البراكين. والشعب الياباني صاحب ثقافة قديمة، جعل من بلده أحد أهم البلدان الصناعية المتقدمة في العالم.

لكن شواطئ اليابان عانت دائماً من آثار الزلازل وثورات البراكين، إذ تدمرت وامحت مناطق عدة من الشواطئ اليابانية. وحكاية الناطور العجوز تروي إحدى هذه الكوارث:

العجوز غواردیان

أية سعادة نشعر بها عندما ننظر من أعلى إلى السفن في البحر فنرى السفن وكأنها مرآة! لكن الصغير الذي اسمه "ين"، شعر بتلك السعادة، وهو على قمة الجبل.

كان ين الصغير بلا والدين، لهذا ذهب مع جده ليعيش في ذلك الكوخ الصغير في الجبل، وسط حقول الأرز البراقة كالذهب. وهناك، كان يتمتع بالهواء النقي وبالشمس وبالحرية مثل الطيور، فهناك يمكنه الركض واللعب بسعادة، وأن يقول: "ما أروع العيش في هذا الريف الهادئ الذي يعمه السلام!".

كانت القرية الصغيرة تقبع في أسفل الجبل، وتمتد على طول الشاطئ قبالة البحر المتوهج من السماء.

وكان الصغير ين يرى الأشياء صغيرة جداً، كأن بعضها نمل كبير والآخر نمل صغير، أما الشيء الوحيد الذي كان بين الجبل والبحر، فلم يكن سوى حزام من التراب، أقام الناس عليه أكواخهم وبيوتهم، بينما كانت الحقول المزروعة تمتد على طول سفوح الجبل، وهناك كان يعيش الصغير ين في كنف جده أمام حقول الأرز التي كان يعشقها.

كان ين جاهزاً على الدوام للمساعدة في العمل، فيفتح السواقي للري، ولم يكن هناك أحد يماثله في تقديم الحبوب للعصافير أثناء الحصاد.

كان ين يشعر بالسعادة لأن جده كان يحبه كثيراً، فذلك العجوز القوي والرصين كان أفضل الرجال، ولأنه كان يعيش في كوخ صغير لطيف ونظيف، فقد كان على يقين بأن الأطفال الآخرين سيحسدونه على ذلك.

في يوم من أيام السنابل الصفراء التي تلمع كالشمس، نظر العجوز بعيداً إلى أفق البحر بنظرات ثابتة، لكنها امتلأت بالمفاجأة. فقد شاهد نوعاً من الغيوم الضخمة السوداء ترتفع في الأفق، كما لو أن الحياة قد تمردت على السماء.

تابع العجوز نظراته الثابتة، وفجأة عاد إلى البيت وهو يصرخ:

– "ين! ين! احضر عوداً مشتعلاً بالنار!".

لكن الصغير ين لم يفهم مُرادَ جدَّه، إلا أنه أطاعه في الحال، وخرج راكضاً وفي يده عوداً مشتعلاً.

كان العجوز قد تناول عوداً ثانياً، وركض باتجاه حقول الأرز الأقرب له، يتبعه ين مذعوراً يحكي مع نفسه: هل هذا معقول؟! وسرعان ما انفجع ين عندما رأى جده يلقي بالعود المشتعل في حقول الأرز، فصرخ ين:

– "ماذا تفعل يا جدي؟ ماذا تريد أن تفعل؟".

فرد العجوز: "هيا بسرعة! بسرعة يا ين! عجّل واقذف بالنار في الحقول!".

بقي ين متسمراً في مكانه. فظنّ أن جدّه قد فقد صوابه بعد أن امتلأ كل جسده بالوحل.

تذكر ين أنّ الطفل الياباني يطيع دائماً، فقذف بالشعلة بين الوحل والطين.

في البداية كان هناك وميض بطيء، ما لبث أن تراجع، فاتسعت رقعة النار بألسنتها الحمراء، وتحولت حقول الأرز إلى محرقة حقيقية، وبدا الجبل، وكأنه يتمدد نحو السماء بأعمدة من الدخان.

ومن هناك، من الأسفل كان سكان القرية يشاهدون حقولهم، وهي تحترق، فبدأوا يطلقون صرخات الغضب، وركضوا ملتاعين يتسلقون الدروب المتعرجة للجبل، يتسلقون إلى أن خارت قواهم، ولم يبق أحد في الخلف، حتى النسوة تسلقن الجبل، وهن يضعن أطفالهن على ظهورهن. وعندما وصلوا، ورأوا حقول الأرز مخربة أحسوا بالمهانة، وبدأوا يصرخون بغضب شديد:

– "من كان هذا؟! من الذي أضرم النار؟!".

تقدم الناطور العجوز نحو الرجال، وبصوت رصين قال:

"أنا".

فبدأ ين يبكي.

أحاط بهما عدد من الرجال وقد سيطر عليهم الهيجان، ويصرخون: "لماذا فعلت ذلك؟! لماذا؟!".

عاد العجوز إلى صرامته، وأشار بيده نحو الأفق، وقال لهم: "انظروا هناك!". فقبل بضع ساعات من ذلك كان سطح البحر مستوياً كمرآة، لكنه الآن يتغير، فقد أخذ الماء يرتفع كجدار من الأشباح المرعبة باتجاه السماء، كانت موجة داكنة وعاتية تتقدم من التخوم، كأنها تهدد وتتوعد، فبدت لحظات الرعب، وأخذت القلوب تخفق بقوة، ولم تبق صرخة في الحلوق، فلقد تقدم جدار الماء إلى التربة بهدير صاخب، اجتاز الشاطئ وهو يغزو كل شيء، ويدمره، كان على شكل صاعقة ستنفجر ضد الجبل وقحة وغاضبة.

بدأ البحر يتراجع بهدير أخرس، فبدت الأرض معصوفة ومنكوبة، فالقرى الصغيرة اختفت تماماً بسبب تلك الموجة الجبارة.

نظر العجوز، وهو ممتلئ بالسعادة، إلى جميع السكان الذين يقفون في قمة الجبل، وقد نجوا. فلقد أنقذهم من اجتياح البحر.

اسوغاي * المسكين

في زمن ما عاش في اليابان رجل فقير اسمه "اسوغاي"، كان يشتغل عاملاً بسيطاً في أحد محاجر الصخور الغرانيتية بأجر قليل جداً، لا يكفيه لتحسين حياته البائسة.

وفي يوم من الأيام، عاد إلى بيته منهكاً من شدة التعب، وكان الرجل الفقير يندب حظه، ويمقت أصحاب الحياة المريحة والناعمة في القصور الفارهة.

أخذ اسوغاي يفكر: "لو أصير غنياً جداً يوماً ما، فسأكون رجلاً محترماً محبوباً ومحط إعجاب كل الناس. أما الآن فأنا رجل فقير بائس، لا أنفع في شيء، ولن أقدر أبداً على الخروج من هذه الحياة التعيسة والحزينة، آه لو كان عندي ثروات كثيرة!".

ونام العامل الفقير وهو يفكر بذلك، فزاره منام رائع، حيث اسوغاي! نعم اسوغاي الطيب! وقد تحول إلى رجل ثري جداً! عنده قصر رائع مشيد بأحجار المرمر، وفي إحدى الغرف الوثيرة الممتلئة بالحرير صار اسوغاي يرتاح، ومن خلف النوافذ الواسعة ينظر إلى الناس في المدينة.

وفي يوم ما رأى الإمبراطور على هودج فوق عربة مذهبة، يتبعه فرسان رائعون وخدم يرفعون فوق رأسه شمسيات نفيسة ومزركشة، فأخذ الحسد اسوغاي، وبدأ يفكر:

"بماذا يفيدني أن أكون غنياً إذا لم يكن مسموحاً لي الخروج مثل الإمبراطور على هودج ويرافقني خدم يحمونني من أشعة الشمس بواقيات من ذهب؟! لهذا سأكون إمبراطوراً".

وما أن قال اسوغاي ذلك حتى تحوّل إلى إمبراطور، يتبعه فرسان رائعون، وحواليه خدم، يحيطونه بشمسيات غاية في الروعة، لكن حرارة الطقس كانت مريعة، فالشمس ساطعة وحارقة، وأشعتها

* ISOGAI.

عامودية. قال اسوغاي: "لا توجد سعادة كاملة! مسكين هذا الإمبراطور إنه يعاني، أيضاً، من شدة وهج الشمس، ليتني أكون شمساً، عندها سأكون الكائن الأقوى في العالم".

وفي الحال تحول اسوغاي إلى شمس! الشمس التي تصل إلى أي مكان في الأرض، تدفئ وتحمص كل شيء: المحاصيل والرجال والجوارح والأمراء، وتصل بجبروتها إلى الجميع.

لكن فجأة جاءت غيمة وبلا خجل، حشرت نفسها بين الشمس والأرض، فشكلت حاجزاً لم تستطع أشعة الشمس اختراقه، لهذا أعلنت الشمس غضبها، وبدأت تصرخ: "بأي حق؟! وبماذا تقوى غيمة على معارضة قوتي وتحجب أشعّتي؟ إذاً، فالأجدر أن أصير غيمة".

وتحول اسوغاي إلى غيمة، وفي الحال، ولكي يمتحن قوته وضع نفسه أمام الشمس بطريقة هزمها فيها، فحجب أشعتها، وألقى بالظلال على الأرض. فيما بعد، هطلت من الغيمة زخة مطر قوية، وانفجرت الرعود والبروق، وفاضت الأنهر على الحقول.

وفي السماء كان اسوغاي يتبرم بقوته، وهو في غاية السعادة، ويقول لا أحد يقدر على مقاومتي، لكنه سرعان ما تجهم عندما رأى من الأعلى شيئاً ما في الأسفل.

كان هذا الشيء صخرة ثابتة لا تتحرك، لم تنفع معها قوة دفع التيار، وكانت موجاته تتحطم عليها دون أن تزحزحها من مكانها.

عندها فكرت الغيمة وقالت: "إذا لم أملك القوة الكافية لأفرضها على صخرة، فسيكون من الأجدر بي أن أصير صخرة مثلها!".

وتحول اسوغاي إلى صخرة، تقاوم لهب الشمس وغضب الصواعق والفيضانات، لكن، وعند أسفل الصخرة الصلبة، أتى رجل له هيئة فقيرة وبائسة، أخرج أزاميل حديدية ومطرقة ضخمة، ورويداً رويداً بدأ ينقر وينقر، ويفتت قطعاً من الصخرة، وبدأ ينحتها بأشكال فنية متعددة.

"كيف هذا؟!"، صرخت الصخرة! "هل يمكن لرجل أن يهزمني، ويقتطع مني أجزاء ويحولها إلى أشكال فنية، وهو في غاية السعادة! إن الأفضل لي أن أعود إنساناً".

عندها نهض اسوغاي من نومه وقد فارقه الحلم.

الصين

الصين بلد عظيم ذو حضارة قديمة كباقي الحضارات القديمة في العالم، لكنه خضع في مرحلة تاريخية إلى الاستعمار، وعانى شعب الصين من العذاب والبؤس جراء ذلك الاستعمار، لكنه استطاع التخلص من عبودية الاحتلال، وأسس جمهورية شعبية حقق فيها مكانة متقدمة في التطور العلمي والاجتماعي، وأصبحت الصين إحدى الدول العظمى في التاريخ الحديث.

هذه الحكاية تروي التقاليد القديمة للشعب الصيني، وتتناول مناقبه كشعب عظيم ونبيل وقوي ومكافح.

حكاية إله الخزف "البرسلان"

من هو أول إنسان اكتشف سرّ الخزف؟ من الذي اكتشف سر الغبار الناعم الذي يتحول إلى أحجار بلورية بيضاء مثل الثلج في أعالي الجبال؟ من هو مكتشف الخزف، هذا الفن الرائع؟

نعم إنه "فو" (Pu)، الإنسان الذي رفعه الصينيون القدامى إلى مرتبة إله، وآمنوا به لقرون طويلة، إنه فو إله الخزف.

أمّا في الحقيقة، فإن هذا الرجل العبقري الذي عمل في أفران صهر التراب كان قد عاش قبل ذلك بكثير، فقبل خمسة آلاف سنة كانت الإمبراطورية الصفراء قد علمت رعاياها فن تشكيل الجرار الرائعة بالتراب، وكان يتم شّيها في النار المستعرة في الأفران، وبعد ذلك بألفي سنة ولد فو الرجل الذي أراد رب السماوات له أن يكون إلهاً للخزف.

وحتى يومنا هذا، يحتفظ الصينيون بأعمال العظيم فو التي خلّفها لتكون ملهمة لعمال الفخار والخزافين الذين يخبئون سر هذا الفن العظيم. أمّا الأشياء التي خلفها فو، فهي تشبه كنوز بورسلانات صافية كالسماء، وبراقة مثل المرآة وأنوار الشفق مع طيران اللقلق فوق البحيرة، والبيضاء مثل الثوب وندى دمعات الأرامل اللواتي لم تتم مواساتهن.

والأكواب الكبيرة شُكلت على هيئة حرباء، فعندما تكون فارغة فإنك ترى فيها بياض اللآلئ، وعندما تفيض بالماء، تبدو كأنها مليئة بأسماك الأرجوان. وتلك التي للسماء عند المغيب الأزرق فتراها ممزوجة بغبار النجوم وانعكاسات القمر. والخضراء التي لخضار طازجة مع غيوم المرمر. والشموس محاطة بتنينات سماويات ... والكثير الكثير من الأعمال الفنية الرائعة لـ"فو".

لقد نسي الناس الكثير من الأسرار التي علمهم إياها إله الخزف. لكن الذاكرة لم تفقد التاريخ العاطفي لهذا الإله.

ربما أحد كبار السن من الذين يطحنون الألوان طيلة اليوم في مصانع البرسلان الضخمة، ربما أحدهم يكون قادراً على أن يروي لنا أن "فو" كان عاملاً صينياً بسيطاً وراح بالتدريج يتطور إلى أن صار فناناً عبقرياً عظيماً، وله قدرة فائقة على الصبر.

كان يولِّف بين الألوان، ويمزج التراب، وكان يرسم، ويجلس على ركبتيه أمام الأفران بانتظار أن يخرج منها عمل كامل وجديد لا يعرفه الناس.

لقد تحققت له سمعة كبيرة، وظنه الكثيرون ساحراً، عالماً بالأسرار التي تبدِّل الحجارة إلى ذهب، وقد سُمِح له بقراءة أسرار الكون عبر النجوم. لهذا، كان من الممكن أن تخرج من بين يدي "فو" الأشكال الرائعة ونغمات النور السحرية من الخزف الناعم.

في يوم من الأيام استطاع العامل الساحر أن يبعث بأحد أعماله المذهلة إلى الإمبراطور.

وراح الإمبراطور ابن السماء يتأمل، مندهشاً، الجرة الرائعة التي تظهر عليها انعكاسات الفضة والشمس مع ألعاب نارية، تغير لونها مع كل حركة لكل من ينظِر إليها، فأمر ابن السماء أن يحضروا له ذلك العامل العجيب. وفي الحال أخذ البسيط "فو" إلى صالة العرش.

ركع "فو" أمام الإمبراطور ثلاث مرات كي يلمس الأرض بجبهته ثلاث مرات متذكراً أوامر الكاهن "اغوستو".

قال الإمبراطور:

"بنيَّ، لقد قبلنا هديتك اللطيفة، ولكي نثبت لك سعادتنا بعملك المفرح فلقد قررنا منحك خمسة آلاف قطعة نقدية من الفضة، لكن اسمع هذا جيداً: سيكون لك ثلاثة أضعاف هذا المبلغ إذا تمكنت من صناعة جرة لها ألوان اللحم الحي وملامحه. اسمع جيداً: لحم يرتعش لكلمات الشعراء المبهجة، ويتعكر، ويتأثر بالأفكار، فكر بطلبنا هذا وعليك بالطاعة!".

انسحب "فو" من القصر ملتاع القلب، وهو يسأل نفسه: "كيف يمكن للإنسان أن يمنح المادة الميتة نبض الحياة، فهذا سر المبدأ الأعلى؟".

كان "فو" يعمل دائماً كي يحقق أشياء لم يعرفها أحد من قبل، فلقد تعلم من الزهرة اللمسة الناعمة والحساسة. وتعلم الأخضر الزمردي من الجبال، والأزرق والدم من الشفق، واللمعة البراقة من الذهب، والأخضر المزرق من الأفعى، وقزح الفضي من الأسماك، لكن كيف يستطيع الإنسان أن يمنح التراب ملامح

اللحم الحي؟ وأن يجعله قادراً على الارتعاش مع نبرات الكلام وفي ظلال التفكير؟

في كل الأحوال كان عليه أن يطيع، وينفذ طلب الإمبراطور، كان عليه أن يتفانى في محاولته من أجل إسعاد ابن السماء.

في ورشته مزج التراب والألوان، عجن وفرك بيديه، وركع أمام النار، يتوسل الإله، لكن بلا نتيجة.

وعلى هذه الحال مرت الشهور، وذهبت كل توسلاته للفرن كي يساعده عبثاً.

– "آه! أنت يا عبقري النار في الأفران... ساعدني! كيف أقدر من تلقاء نفسي أن أنفخ الحياة في الصلصال؟ كيف أقدر على منح هذه القطعة الميتة صفات اللحم الذي يقشعر للأفكار؟".

فأجابه عبقري النار بلغته العجيبة، وهي ألسنة النار: "كبيرة هي نيتك الطيبة، لكن هل يقدر أي ميت أن يتبع آثار التفكير وارتعاشات الحياة؟".

وعلى الرغم من هذه الإجابة المخيبة لآماله، استمر العامل الطيب بتجاربه بلا توقف، وعبثاً كان كل ذلك.

لقد نفد منه احتياطي الخزف، وقد خارت قواه، وأنهكت عبقريته، وكذلك نفد صبره المقدس، وبدأ المرض يأكل منه، وحلت عليه الفاقة والشقاء.

وحاول من جديد، لكن بلا قوة، إلا أنه في اللحظة التي كان على الفرن أن يصهر فيها تراباً وألواناً في مادة شفافة، ارتجفت واهتزت الطاولة الفقيرة والمتسخة بالألوان بينما كان "فو" يشتكي وفي قلبه لوعة.

– "آه يا عبقري النار في الفرن! إذا لم تنقذني فكيف لي أن أضبط نفخة الروح ورنة الحياة التي ينتظرهما ابن السماء؟".

فأجابه صوت النار بشكل غرائبي: "أأنت تريد أن تفعل ما يفعله الملون اللامتناهي الذي يصنع قوس قزح بأقلام ضوئية؟".

فعاد "فو" من جديد إلى العمل.

أحياناً كانت الألوان تبدو وقد انصهرت في التدرجات المضبوطة، وسطح الجرة كان يهتز بالألوان مثل لحم حيّ، لكن عندما راحت تبرد أخذت تتجعد وتتشابك خطوط فيها كأنها قشرة فاكهة يابسة.

وعاد "فو" يتضرع ويتوسل باكياً:

– "آه يا عبقري النار! إذا لم تساعدني أنت، فكيف لي أن أصهر خزفي وأحيله لحماً حياً في فرني؟".

فأجابه عبقري النار بشكل غرائبي للمرة الثانية: "هل تسعى لإعطاء الروح إلى الحجر؟ هل تقدر أنت أن تجعل باطن الروابي الغرانيتية تقشعر وتفكّر؟".

صرخ "فو" وهو محبط جداً: "أيها الرب الجبار! لماذا تتخلى عني؟ لماذا نسيتني فأنت يا من عبدتك دائما؟".

عندها، قال عبقري النار بصوت من نار: "أنت تريد أن تمنح روحا للشيء الذي صنعته، لكن الروح لا يمكن قسمتها، لا يمكن أن تعطي قسماً من روحك ؟ إني أحتاج إلى روحك كاملة مقابل إعطاء الروح لعملك".

نهض "فو" وقد امتلأت عيناه بالحزن، وانفطر قلبه.

وللمرة الأخيرة، أعاد "فو" عمله، نخّل الرمل مائة مرة، وكذلك التراب الناعم جداً غسله بالماء الأكثر صفواً لمائة مرة وعجنها بحب.

راحت الألوان تمتزج رويداً رويدًا لتصل إلى الدرجات التي حلم بها ابن السماء.

وفيما بعد، بدأ العامل الملهم يعطي شكلاً لتلك العجينة الصافية النقية، يلمسها ويداعبها بأصابعه، حتى صار جلد الجرة الرائع كما لو أنه قبض على رقة الحرير وشفافيته ونعومة الشمع الزهري، ودم من لحم الأميرات.

عندها أمر "فو" المساعدين أن يغذوا الفرن العظيم بأغصان ناعمة وصافية من شجرة الشاي.

وخلال تسعة أيام وتسع ليالٍ، كان الفرن مشتعلاً أحمر يتغذى على أغصان شجرة الشاي النقية والناعمة.

وخلال تسعة أيام وتسع ليالٍ، حرص الرجال على أن تلفّ النار الجرة الوحيدة التي كانت تتجسد في لحم سحري.

مع اقتراب الليلة التاسعة أمر "فو" مساعديه أن يذهبوا ليرتاحوا، فلقد بدا العمل وقد انتهى، وقال لهم: "مع بزوغ الفجر إذا لم تجدوني هنا فاخرجوا الجرة من الفرن، إذ أنه في تلك الساعة ستكون كما أراد ابن السماء".

وبقي "فو" وحده قبالة الفرن في الليلة التاسعة، ركع أمام النار، وقال أمنيته

إلى عبقري اللهب: "آه يا ربّ النار لقد استوعبت أعماق معاني كلماتك! اقبل حياتي فداء لحياة عملي وروحي فداء لروحها".

وقبل أن تنتهي الليلة التاسعة ألقى "فو" بنفسه إلى النار الحية في الفرن.

عند فجر اليوم العاشر جاء العمال ليخرجوا الجرة الغالية من الفرن، لكنهم لم يجدوا معلمهم! لكن يا للمعجزة! كانت الجرة متأججة بحق مثل اللحم الذي يقشعر مع نسق الأفكار. وإذ لمسوها ببصمة إبهام فقط أصدرت صوتاً خفيفاً كصوت روح موجوعة، جعلت الأسماع تلتقط بالأنفاس اسم الذي صار بعد هذا إله الخزف.

هروب الرسام "لي"

إنها الحكاية التاريخية المشوقة للرسام "لي تشان جاو"، الرسام الصيني في أزمان بعيدة، الذي هرب من القصر الإمبراطوري، ولم يعرف عنه أي شيء أبداً.

ولد "لي" في منطقة رطبة وخضراء، وكانت طفولته سعيدة بين أشجار المروج الرمادية والبيضاء والأشجار المزهرة، وفي قريته الحلوة، ومع والديه الفلاحيْن المسنيْن، ومع النهر الرقراق بين سهول القصب والخيزران.

كان ذلك كل فرحه وحياته. حتى في نومه كان يضحك، وهو يحلم بالشمس البلورية على الحقل.

منذ صغره كان يرسم الأسماك والعصافير بالحجارة التي غسلها النهر، يرسم القطيع والرعاة في تخشيبات الإسطبلات.

الجس والكربون كانا قلماً سحرياً لتخيلاته الطفولية. نما "لي" في القرى والضيعات القريبة. كان الجميع يتحدث عن "لي". كثير من الناس كانوا يأتون ليروا رسومات الفتى الفنان. فلقد أخذت موهبته تكبر وشهرته تذيع إلى أن وصلت إلى قصر الإمبراطور.

بعث الإمبراطور بطلب "لي"، فلبى "لي" الطلب، إذ ركع أمام الإمبراطور ابن السماء ثلاث مرات، ولمست جبهته الأرض ثلاث مرات، عندها قال الإمبراطور له: "عليك أن تبقى هنا لتعمل على زخرفة ممرات القصر وصالاته، ولقد أمرت أن تهيّأ لك إحدى الصالات كمرسم مليء بالألوان واللوحات والأخشاب الرائعة. ستتغير حياتك اعتباراً من اليوم، ولن تعود إلى حيث ولدت".

حزن "لي" لأنه لن يتمكن من رؤية منزله بعد ذلك، هناك في الضيعة الحلوة والبيضاء ذات الأشجار المزهرة على ضفتي النهر الصافي والأليف، ويكفيه الآن أن يحلم بسعادة الريف، وهو محجوز في صالات القصر المحاط بتنينات حجرية ضخمة!

أخذ يعمل بلا توقف، كي يرضي الإمبراطور، فملأت رسوماته جدران الغرف والأبواب الخشبية والحديدية وأسوار المعابد وصالات التشريفات، لكن تفكيره كان يحلق في الأرض الخلابة والرطبة التي عاش فيها بسعادة غامرة.

في يوم من الأيام، رسم "لي" لوحة كبيرة وأخّاذة ضمَّنها سماء طفولته الصافية، وحقل المروج والجسر الصغير المصنوع من العيدان فوق النهر الذي يكتنفه قصب خيزران الضيعة البيضاء، وفي العمق كان طيران البط البري وشمس الفجر الحمراء والأخضر الناصع للعشب المبلل.

كانت لوحة كبيرة ورائعة جاء لرؤيتها الأمراء والموظفون الساميون، كانت معلقة في إحدى صالات القصر الفارهة، وبدت كأنها نافذة مفتوحة في الجدار الصلب، على مشهد الريف الأكثر حلاوة وعذوبة.

كان "لي" قد صنع أفضل أعماله التي حملها دائماً في تفكيره وفي أحلامه، ولم تبدُ له كلوحة من بلاده، إنما كانت بلاده كلها قد وضعت في اللوحة كمعجزة. لهذا، كان يقضي ساعات طويلة أمامها يشم هواءها النقي وعطرها، لكن الرسام العبد لم يكن بمقدوره أن يدخل الصالات الكبيرة المخصصة للحفلات واستقبالات الأمراء والنبلاء. كان عليه أن يعيش ويعمل في ورشته منسياً من الجميع.

تمنى "لي" دائما أن يتمكن من رؤية لوحته، وإن كان ذلك من خلال الأبواب نصف المفتوحة. وفي يوم كان الحراس والخدم غير موجودين، دخل "لي" خلسة، وانتزع لوحته التي تتحدث عن الريف الأخضر، ومضى بها بين الممرات المعتمة ليخبئها في مشغله، حيث يستطيع تأملها وهو يتحسر.

انطلقت صافرة الخطر في أنحاء القصر، وامتدت الصيحات إلى أنحاء المدينة، وهي تعلن عن اختفاء اللوحة العظيمة.

كان الإمبراطور يشتاط غضباً، يتهدد ويتوعد. فانتشر ألف جندي يبحثون عن السارق. دخلوا كل البيوت وفتشوا كل الأماكن وأخيراً عثروا على اللوحة في مرسم "لي"، وقد خبـّأها بين الألواح وأقمشة الكتان.

أمر الإمبراطور بسجن "لي" وأن يستمر في الرسم من داخل سجنه ليكمل زخرفة قصره.

لم يقدر "لي" على الرسم. كان النور ينقص عينيه ويفتقر قلبه إلى السعادة. عندها استدعاه الإمبراطور وقال له: "ستعود من جديد إلى القصر لتعيش وترسم وكي تكون سعيداً سأدعك وحدك مع لوحتك لدقائق قليلة كل يوم،

أمّا إذا حاولت القيام بأي شيء قد يغيظني فسوف تعاقب بلا رحمة أو شفقة".

تابع "لي" عمله، وفي كل يوم كان جرح روحه يتسع أكثر فأكثر أمام الحقل الطليق لموطنه الأخضر، واستمر يعاني من الحزن المزعج في القصر الإمبراطوري. ولم يعد يقوى على المقاومة أكثر.

وفي يوم من الأيام، كان وحيداً في الصالة الواسعة أمام لوحته، ينظر إليها بعينين كبيرتين وواسعتين، ينظر إلى ضيعته الخضراء والبرّاقة، وإلى الحقل الشاسع الذي يمكن الركض فيه من غير الوصول إلى نهايته. ينظر من أجل أن يستنشق هواءه الذي تصفّيه أشجار الصفصاف، وكي يعانق الأشجار ويغني مع الريح، ويسمع فحيح قصب الخيزران. لهذا قرر أن يهرب من هذا العالم الأسود والثقيل بسجنه، وقال لنفسه: نعم .. هناك الحقل واسع وقريب مني، طري من كثرة المروج، سأدوسه وأركض فيه مفتوحَ الذراعين كأنهما جناحي طير..".

واقترب لي من اللوحة شيئاً فشيئاً، ثم قفز داخلها، داخل الحقل بين المروج من غير أن يبحث عن الطرقات، وأخذ يركض ويركض دون توقف، وأخذ يبتعد ويصغر رويداً رويداً إلى أن اختفى عند خط الأفق الأزرق.

عندما دخل الحراس ليعيدوا "لي" إلى مرسمه لم يجدوه. اشتاط الإمبراطور غضباً. لقد كان مستحيلاً أن يكون "لي" قد خرج من هناك من غير أن يراه أحد، لكن أحد الحكماء من الموظفين الساميين وجد التفسير لتلك الأحجية، لقد هرب "لي" في داخل اللوحة، وبدأ يركض عبر المنظر الطبيعي الذي رسمه هو. ولقد شوهدت أثار خطواته على العشب الندي للمروج.

الهــند

في بلاد الهند المترامية الأطراف في آسيا، حيث يحيا مئات ملايين السكان من أصول مختلفة وديانات متعددة هناك، ومنذ السنين الغابرة تشكلت في هذه البلاد حضارة من أغنى ثقافات العالم القديم والإنسانية.

عن حياة هذا الشعب الهندي، وعن إحساسه العميق بالأشياء، عن ناسه وحياتهم تحدثنا أعمالهم الفنية وتفكيرهم الممتلئ بالحكمة...

البراهما والنمر وابن آوى

عند مرور البراهما بإحدى قرى الهند في إحدى المرات، رأى على قارعة الطريق قفصاً كبيراً من الخيزران وفي داخله نمر هائج، كان الفلاحون قد اصطادوه بأحد شراكهم. وعندما شاهد النمر البراهما قال بصوت جريح: "أيها الأخ البراهما افتح لي الأبواب، واتركني أخرج لأشرب ماء، فأنا عطشان ولم يضعوا لي ماء في القفص".

فرد البراهما عليه: "إذا فتحت لك الباب يا أخي النمر فإني أخشى أن تلتهمني كما تلتهم أغنام القطيع!".

فقال النمر: "كيف تفكر بهذه الطريقة؟ هل تعتقد أني قادر على هذه الفعلة المشينة؟ دعني أخرج للحظة واحدة، لأخذ رشفة واحدة من الماء، آه أيها الأخ البراهما!".

فتح البراهما باب القفص، وعندما أحس النمر بأنه صار طليقاً، قفز على البراهما ليأكله.

– "أيها الأخ النمر انتظر! لقد وعدتني بأنك لن تلحق بي أي أذى! وما تفعله الآن ليس فعلاً نبيلاً ولا عادلاً!".

قال النمر: "هذا لا يهمني، فأنا سألتهمك، لأنه بالنسبة لي يبدو الأمر عادلاً ولدي الحق في ذلك".

وتوسل البراهما إلى النمر كثيراً، وأخيراً استطاع أن يقنعه بأن ينتظرا سماع رأي أول ثلاثة عابرين يصادفانهم في الطريق.

وأول من عثرا عليه كان جاموساً متمدداً على قارعة الطريق، فتوقف البراهما وقال له: "أيها الأخ الجاموس! هل يبدو لك عدلاً ونبيلاً أن يلتهمني النمر، بعد أن أطلقت سراحه من قفص محكم الإغلاق؟".

رفع الجاموس عينيه الحزينتين وببطء قال: "عندما كنت فتياً وقوياً كان مالكي وسيدي يجبرني أن أعمل بلا توقف، والآن وقد صرت شائخاً وخائر القوى، فلقد أهملني وتركني لأموت هنا من

الجوع والعطش، الناس جاحدون! فإذا أكل النمر البراهما سيكون ذلك عملاً عادلاً".

قفز النمر هائجاً على البراهما الذي صرخ: "لا! لا! انتظر! علينا أن ننتظر اثنين آخرين لنستشيرهما، لقد وعدتني بذلك!".

وبعد قليل شاهدا نسراً يطير على علو منخفض فوق الرؤوس، فصرخ البراهما عليه: "أيها الأخ النسر! قل لنا إن كان يبدو لك عدلاً أن يأكلني هذا النمر بعد أن حررته من سجن فظيع؟!".

أوقف النسر تحليقه في لحظة، وحطّ إلى جانبهما وقال: "إنني أمضي حياتي بين الغيوم، ولا أؤذي أحداً من البشر، لكن بني البشر يطلقون عليّ السهام، وعندما يصلون إلى عشي فإنهم يقتلون فراخي، أعتقد أن النمر سيقوم بعمل جيد إذا أكلك!".

فقفز النمر على البراهما، والبراهما يصرخ: "لا! لا! انتظر يا أخي النمر! إنها المرة الثانية التي نستشير بها، ولقد اتفقنا على أن نسأل ثلاثة عابرين فما زال أمامنا واحد لنسأله!"، ومع أنّ النمر كان يزمجر، فإنه واصل الطريق مع البراهما.

وما هي إلاّ لحظات حتى ظهر ابن آوى، وهو يمشي مختالاً ومزهواً بنفسه، اقترب البراهما منه وقال له: "أيها الأخ ابن آوى! كيف يبدو هذا الأمر لك؟ هل ترى أنه من العدل أن يلتهمني النمر بعد أن حررته من القفص؟".

– "ماذا تقول؟"، سأله ابن آوى.

– "أقول– أعاد البراهما وبصوت مرتفع – إن كنت تعتقد أنه من النبل والعدل بمكان أن يأكلني هذا السيد النمر مع أنني ساعدته شخصياً بالخروج من قفص محكم الإغلاق؟".

– "مِنْ قفص؟"، ردد ابن أوى الكلام وكأنه لم يكن منتبهاً.

– "نعم! نعم! من قفص، أنا شخصياً فتحت الباب. والآن نريد أن نعرف ما هو رأيك؟".

– "آه! – قال ابن آوى – تريدان معرفة رأيي؟ في هذه الحالة عليكما أن تقصا عليّ الحكاية كلّها، وبوضوح فأنا مشوش، ولا أفهم الأشياء جيداً. هيا لنرى ماذا يجري هنا!".

– "انظر! – بدأ البراهما الحديث– كنت ماشياً في الطريق عندما شاهدت النمر محبوساً في القفص، عندها ناداني هو".

– "اسمع! اسمع –قال ابن آوى– إذا بدأت بحكاية طويلة جداً فلن أفهم منك ولا كلمة واحدة! عليك أن تشرح لي بشكل أفضل! أيّ قفص تقصد؟".

– "إنه قفص عادي، قفص مصنوع من قصب الخيزران"، أجابه البراهما.

– "طيب! لكن هذا لا يكفي، فمن الأفضل أن أرى ذلك القفص! وبذلك أفهم ما جرى بشكل أفضل".

ومشوا في الطريق إلى أن وصلوا ثلاثتهم إلى المكان الذي يوجد فيه القفص.

– "الآن هيا نرى!– قال ابن آوى– أين كنت أنت يا أخي البراهما؟".

– "هنا بالضبط في الطريق".

– "وأنت يا أخي النمر؟".

– "أنا في داخل القفص!". أجاب النمر وهو غاضب ومستعد ليأكل الاثنين معاً.

– "أوه! معذرة أيها النمر! – قال ابن آوى – أنا مشوش، ولا أقدر أن أفهم الأشياء بالضبط! دعني أرى! اسمح لي! كيف كنت حضرتك في القفص؟ في أي وضع؟".

– "هكذا! أيها المعتوه! – قال النمر، وقفز إلى داخل القفص – وفي هذه الزاوية كنت ورأسي بهذا الاتجاه".

– "آه! نعم نعم، لقد بدأت أفهم، لكن لماذا لم تخرج من القفص؟". سأل ابن آوى.

– "ألا ترى أن الباب كان مقفلاً؟". قالها النمر وبدأ يزمجر.

– "آه...! الباب كان مقفلاً! وكيف كيف كان مقفلا؟"، استمر ابن آوى بالحديث.

– "هكذا". قال البراهما، وهو يغلق القفص.

– "لكنني لا أرى قفلاً –أضاف ابن آوى – وكان بمقدوره أن يخرج!".

– "هذا هو القفل"، وأحكم البراهما إغلاقه.

– "آه! نعم! يوجد قفل، إنني أرى قفلا"، قال ابن آوى وهو يسخر من النمر بعد أن اطمأن أنه في القفص، واستدار ابن آوى باتجاه البراهما قائلاً: "الآن والقفص محكم الإغلاق بالقفل، فإنني أنصحك أن تتركه كما كان، وأنت يا حضرة السيد النمر! بإمكانك أن تبقى هادئاً، فربما يمرّ أحد ما وقد يخاطر بإطلاقٍ سراحك". وضرب تعظيم سلام إلى البراهما، وراح يختال بمشيته سعيداً فرحاً.

كيف نبتت شجرة الخبز في الهند؟

في منطقة فقيرة من مناطق الهند الحارة، كان هناك رجل عجوز فقير يعيش مع ابنه وخادمه القديم وكلبه، وكان قد أضاع، في سنوات البؤس، ثروته الصغيرة، وغدا فاقداً الهدف من الحياة، ودون أية رعاية من أحد، عاد ومن معه إلى العيش في بيت مهجور عند الريف الصحراوي.

في الصندوق المهترئ يمكنهم أن يضعوا أربعة أقراص كبيرة من الخبز فقط، لكل واحد رغيف، وكان ذلك هو الغذاء الوحيد لهم الذي يعتمدون عليه طيلة الشهر، وحتى يتوقف فصل الأمطار.

في إحدى الليالي التي مزق البرق الصمت فيها، كانوا يجلسون حول الطاولة، أخذ الأب والابن والخادم يفكرون في شقائهم، وكان الكلب ينام على قدم سيده.

وبين صوت المطر وصفير الرياح سمعت طرقات على الباب، فسارع الخادم ليفتحه، فإذا بأحد المشردين يطلب شيئاً ليأكله.

لم يكن بإمكان أي كان أن يعرف بأن ذلك الرجل ذا ربطة العنق والبائس هو الرب؛ البراهما، يمر هكذا! وقد تحول إلى الأرض، ليتعرف على حياة الناس وعاداتهم، ولكي يعاقبهم أو يمنحهم الثواب، كلاً حسب عمله.

سمع الأب طلب المشرد وقال لخادمه: "أعطِ الرجل حصتي من الخبز، إنه أكثر فقراً مني، ولا يوجد له مكان يَلجأ إليه. سأبقى من غير أكل وسنُخرج من الأرض ما ينقصنا".

أطاع الخادم أوامر سيده، وقدم، باستياء، حصة سيده للرجل الفقير. وتواصلت الأمطار بالهطول، والحزن يخيم على البيت البسيط.

وبعد سبعة أيام عاد المشرد يطرق الباب، وطلب شيئاً يسد به رمقه، ويحميه من الجوع والبؤس.

اضطرب الأب للحظة، لكنّ نظراته بقيت حادة وثابتة، فنادى خادمه وقال له: "إذا كنت أنا قد امتنعت عن الأكل، كي أساعد هذا الرجل المسكين، فعليك أنت أن تفعل الشيء نفسه، فأنت لا تزال شاباً وقوياً وتعيش في بيتي كابن لي، بينما هذا الرجل الفقير الذي يتسول، عجوز ولا معين له، فأعطه خبزك كما أعطيته أنا".

أطاع الخادم سيده، لكنه كان سعيداً هذه المرة.

مر أسبوع آخر، والسماء لا تزال سوداء مكفهرة والبيت مغلق، يعيش صمتاً مطبقاً. عاد المشرد يسأل بصوت يكاد صاحبه يغشى عليه.

اضطرب عجوز البيت للحظة، لكنه قال بصوت متهدج: "لقد جاءت اللحظة التي يجب فيها على ابني أن يضحي، فيجب أن يتعلم من الصغر تحمل معاناة بؤس الغير رغم مظهرهم كما لو كانت معاناته الشخصية، فأعط الرجل خبز ابني".

أطاع الخادم الأمر باستياء هذه المرة.

مرت سبعة أيام أخرى، كانت طويلة جداً، لكنها مليئة بالأمل.

وعاد الرب البراهما للمرة الأخيرة يتظاهر بالتعب وبالجوع وبالبؤس، أراد أن يمتحن ويعرف إلى أيّ مدى تصل شفقة أولئك الناس الفقراء ورأفتهم؟ وطلب خبزاً بصوت ضعيف وفيه حسرة.

سمع العجوز توسّل المتسول، فاضطرب قليلاً، لكنه قال، وهو يرافق كلماته بحركات بطيئة: "لقد أعطيت الرجل خبزي وخبز خادمي وابني ... وبعد هذا أظن أنه بإمكاني أن أقدم له حصة الكلب، فالحيوان الطيب يشعر بمتعة التضحية. أعطه ما تبقى من خبز! ولنكن محظوظين لأننا استطعنا أن نعطي شيئاً".

أخذ المتسول الخبز من الأيادي النبيلة وحيّا الخادم لوقفته إلى جانب سيده، لكنه عاد مرة ثانية إلى الباب، حيث سمعهم ينادونه باسمه مع الشكر والتبجيل!

وعلى الضوء الرمادي للمغيب تحول المتسول وعاد إلى جلاله ووهجه كالشمس.

كشف الرب البراهما بين أصابعه عن بذور كبيرة كحبات اللوز، وقال: "خذ وأعطِ هذه إلى سيدك ليزرعها ولن يجوع أبداً".

عاد الخادم مليئاً بالدهشة إلى سيده، وأعطاه هدية الرب الغريبة، وبدأ يحكي له عن تحول المتسول.

أخذ العجوز ابنه من يده، وخرج ليرى بعينيه ذلك التحول الغريب، لكنه لم يجد أحداً إلا الضوء الرمادي للمغيب.

ومع ابنه وخادمه صعد العجوز إلى مرتفع قريب وزرع هناك البذور السمراء اللون.

بعد لحظات رأوا أعماق السماء من خلال وميض البرق، وبدأت أمطار ثقيلة ودافئة بالهطول.

لقد منح تراب الأرض وبقوة شكلاً صلباً ومستقيماً، أخذ ينمو وينمو، واتسع مثل جذع غريب، وفي وقت قصير تشكلت شجرة رائعة، نبت قطف على أحد أغصانها، والقطف فيه أربع ثمرات كبيرة وغالية.

إنه قطف من الخبز بعجينة بيضاء، أربعة من أقراص الخبز إلى الفقراء الأربعة الذين يعيشون في ذلك البيت البائس.

شكروا جميعهم البراهما الذي أحضر إلى أرض الهند شجرة الخبز المعطاءة.

حيوان النمس

كل فجر صباح كان الشاب الحطّاب يخرج إلى الغابة، ولا يعود إلا بعد أن تغيب الشمس.

كانت زوجته تبقى وحيدة طوال اليوم في الكوخ الخشبي وسط الحقل، ولم تكن لترتاح للحظة واحدة، وهي تقوم بترتيب البيت الفقير، والتقاط الأغصان للنار، وتحضير الأكل ورعاية رضيعها، فقد كانت تروح وتجيء ناظرة إليه، وكانت تعاود النظر إليه في مهده، وهي سعيدة لرؤيته. كان وليدها الأول الذي أنجبته قبل عدة شهور، وصار مصدر سعادة الأم الشابة، فهي تحيا من أجل رعايته فقط. وعندما تكون إلى جواره أو تحمله بين ذراعيها تغمرها السعادة.

وإلى جانب ذلك، فلقد كانت تعاني من أفكار سود، لا تجعلها تعيش بسلام وطمأنينة.

كانت عين الماء على مسافة من الخيمة، وكان عليها الذهاب إلى هناك، كي تملأ الجرار، وفي أثناء ذلك كان الطفل يبقى وحيداً في مهده، وحيداً هناك وسط الحقل.

وفي حقيقة الأمر، كان النمس حيوان البيت يبقى هناك أيضاً، الحيوان الصديق الذي كان يعيش معهم، وهو ينظر إليهم بعيون المحبة.

وحين تخرج الأم، كان الطفل يبقى تحت رعاية النمس، لكن هل يمكن الوثوق بحيوان حتى ولو تربى في البيت؟ ماذا يمكن لحيوان أن يفعل يوماً ما إذا أحس أنه مهتاج؟ هل يقدر أن يلقي بنفسه على الطفل الصغير المسالم، ويجعله غنيمته؟

– "إنه حيوان! حيوان! وثقة! وثقة!". قالت الأم الشابة ذلك، وكانت ترتجف كعادتها كلما فكرت بذلك.

كان زوجها قد قال لها مرات كثيرة إنها تتعذب من غير مسببات، فالنمس حيوان كبير ووديع وصديق، فمن الخطأ عدم الثقة به، فأخذت الأم تلوم أفكارها السيئة، لكن رغم كل شيء، لم تتمكن من الإحساس بالطمأنينة وتقول: "ماذا لو أن النمس في يوم ما ...؟ ".

وفي أحد الصباحات نزلت المرأة إلى عين الماء وهي تحمل جرتها، وهناك في الخيمة بقي الطفل نائماً في المهد، والنمس يتظاهر بالنوم في الزاوية، وقد كوّر جسمه كأنه بيضة، ومن حين الى آخر كان يفتح إحدى عينيه، وكأنه يتفقد شيئاً! وفجأة وبلا ضجيج، ومن ثقب كان بين الأرضية وخشب الخيمة انسلت أفعى كبيرة وسوداء، كانت أفعى سمّينة وقوية، لكن ما يخيف هو السم الموجود في أسنانها. وبصمت وبسرعة اتجهت نحو مهد الطفل، لكن النمس وثب لها في اللحظة المناسبة. ووقف أمامها وشعر ذيله قد اقشعر، وعيناه تشعان بوميض حقد.

الكلب أو الذئب لا يقدران على مواجهة الأفعى، ففي ضربة سريعة من رأسها يدلف السم القاتل إلى أجسام هذه الحيوانات القوية، ولا يمكن لها أن تقاوم ضغط الطيّة اللولبية التي تضغط بها كثيراً وبقوة كي ينفث السمّ فيها، لكن النمس كان هناك، هذا الحيوان الصغير يقف قبالة الأفعى فلا يسمح لها بالمرور!

كان النمس يستجمع شجاعته ليواجه فم الأفعى المفتوح وعيناه متقدتان بالحقد، كأن الأفعى صارت عصا، وأطلقت رأسها في هجوم مثل السهم.

امتص النمس الضربة بقفزة سريعة موازية، وعاد ثانية يقف قبالتها لا يزيح نظره عن عدوته، كان شعر النمس مقشعراً، وكانت تهدد بإظهار أنيابها، لكن مخالب النمس كانت تخرمش الأرض كأنها أمواس حادة.

أحنى ظهره مرات عدة، وألصق جسمه في الأرض مرات أخرى، وكذلك حرك عضلاته. كان واضحاً أنه ينتظر اللحظة المناسبة للهجوم، ووثب مهاجماً، فلقد جعل جسم الأفعى غنيمته، ووثب بسرعة ككرة تتقافز! ومع وثبة ثانية أكثر سرعة تحرر من رأس عدوته التي أخذت تتلوى.

هاجت الأفعى السامة وقد أحست بأنها انجرحت، فتقدمت وهاجمت، وهي تطلق رأسها ونصف جسمها مثل السهم.

كان النمس يقفز من مكان إلى آخر، ليمتص الهجمات التي كانت تجيئه مثل الطنين، وكان عليه أن يتراجع ويقبع، لكن عضلاتها كانت تتحرك تحت الجلد، وفي عينيها كانت نقاط حمر تلمع، وانطلقت بقفزة بدت أنها وجهاً لوجه، لكنها أخفقت في تحديد زاوية الهجوم، وعندما هاجمت الأفعى من

الجهة الأخرى، ومثل البرق، هبط عليها النمس من خلف رأسها، إنها غنيمته هناك! فهاجمها بمخالبه وبكل جسمه الضاغط.

وبدأ جسم الأفعى يتراجع، كان يرتفع وينطوي، ويلتف بارتعاشات قوية، وهناك في الرقبة خلف الرأس كان يضع وزنه الذي حرقها كالجمر. كانت هناك لحظة أخيرة من الضجيج، كأنها رياح تكنس أوراق الشجر اليابسة.

أخذ الاثنان يتراجعان أحدهما يجرجر الآخر ممرغين بتراب الأرض والغبار، الذي انبعث من هزّه لذنبه، وأخذ جسم الأفعى يطول، ويرسم على الأرض، ولمرة أخيرة، شكل حرف (أس) "S"، وهمدت بلا حراك.

لكن النمس بقي هناك للحظة عند غنيمته يتحسس دم عدوته من الرقبة التي قطعها، وبعد ذلك قفز، لكن في داخله يغلي الهيجان والرغبة بالعض، وأخذ يسحب الجسم المهزوم ويسحله هنا وهناك ممسكاً به بمخالبه مرة وبـ"بوزه" مرة أخرى. ورغم أنه كان منهكاً، لكنه كان سعيداً بانتصاره، فلقد اتجه النمس نحو مهد الطفل، وخرج من الباب شبه المفتوح، وراح ينتظر سيدته علّه ينقل لها الفرح الموجود في قلبه كحيوان!

كانت المرأة عائدة في الطريق تحمل جرتها الممتلئة بالماء على رأسها، وعند وصولها رأت النمس معفراً بالتراب، والدم على "بوزه" ومخالبه، وفي عينيه بريق غريب، فأخذت الهواجس تتناوبها.

– "آه آيتها الآلهة! هذا ما كنت أخشاه من هذا الحيوان الملعون! ها هو قد أكمل التهام رضيعي! آه آيتها الآلهة! أي عقاب لهذا الحقد الكبير والأعمى! عقاب وأي عقاب؟! لا شيء غير الموت! نعم الموت!".

وفي لحظة من اليأس ألقت الجرة بكل قوتها على النمس الذي سرعان ما تمدد على الطريق. وأخذت تركض كأنها تطير باتجاه الكوخ، وعندما دخلت كان ابنها الرضيع يغفو في المهد، لكنّ قدمها تعثرت بأشلاء جسم الأفعى السوداء فأدركت كلّ شيء، ونظرت إلى نفسها، وإلى الأفكار السيئة والسوداء! وإلى فورة غضبها الملعونة التي جعلتها تدفع المعروف بالإساءة! وبدأت تضرب بقبضتي يديها على صدرها ورأسها، وهي تركض إلى الطريق، يأكلها الحزن كما كانت من قبل، وأخذت تبحث عن الحيوان الوفي.

التقطته من الأرض، وحملته بين ذراعيها بحب، ومضت به إلى الكوخ، وهناك أعدّت له سريراً من أفضل الأقمشة لديها، وقرّبته من النار، وأخذت تداعبه وتقول له أحلى الكلام الممزوج بدموعها.

وبعد وقت لا بأس به ارتجف النمس، ونظر إلى سيدته بعينيه الطيبتين، ثم نظر نحو مهد الطفل.

وفي الليل، عندما عاد زوجها الحطاب، وجد الأم تبكي من الفرح، وهي تجلس قرب النار وطفلها والنمس معاً بين ذراعيها.

الكتاب الرابع:

طِفلـةُ الثَّلْـــج

أوروبا

روســـــــيا

"سنيغورتشكا"* طفلة الثلج

في البيت القروي البسيط كانت بعض زواياه تلمع بضياء قادم من النافذة، حيث كان يدخل الضوء الأبيض والبارد لذلك الصباح الثلجي. أمّا الجدّة "ماريوتشا" فقد كانت تحيط القدر بالجمر، كي يغلي الحساء على نار هادئة. وكانت حزينة؛ فلقد مضت السنوات، وأحنتها بأثقالها وبيّضت شعر رأسها بثلوج فصول الشتاء المتعاقبة.

لقد مرت السنوات، وأخذت معها حلم العجوزين في أن يلد لهما طفل يملأ حياتهما بالسعادة.

أحضر الجدّ "يوتشوكو" حزمة من الأغصان اليابسة، ليطيل بها حياة النار في البيت. فامتلأ المطبخ بطقطقات الأغصان وهي تشتعل. وفي جوار البيت كانت تعلو فرحة الأطفال وهم يلعبون.

أطلّ العجوز يوتشوكو من النافذة فرأى الأطفال يرقصون ويضحكون، وقد شكّلوا من أنفسهم جوقة كورال ليغنّوا وهم يحيطون بتمثال من الثلج.

وبحماس قال الجدّ: "اسمعي يا ماريوتشا، تعالي وانظري إلى الدمية التي صنعها الأطفال". وبدأ العجوزان بالضحك وهما يريان الأطفال يضحكون. كانت دمية الثلج سمينة وقصيرة القامة، فيها شبه كبير من عمدة القرية، إنها شيطنة أطفال!

وفجأة، كف يوتشوكو عن الضحك وقال: "ماريوتشا تعالي لنرى إن كان بإمكاننا أن نصنع صغيراً! ألا ترغبين؟".

---

* كلمة روسية تعني طفلة الثلج.

فردت عليه: "ماذا بك؟ ألا ترى أن الناس ستسخر منا؟ لقد شِخْنا يا رجل على أشياء الصغار هذه!".

– "لا يهم!". – وأصرّ يوتشوكو – وأضاف: "سنتفادى أن يرانا أحد، سنشكل دمية صغيرة مثل طفلة صغيرة وجميلة جداً".

أخذت ماريوتشا القدر عن النار، ووضعت شالاً من الجلد وخرجت مع يوتشوكو، وعندما مرّا بالصغار توقفا، وأخذا يلعبان معهما ويقفزان ويغنيان بكل الفرح الطفولي، ثم بدآ بالانسحاب رويداً رويداً، وتوجها إلى دغل صغير كانت أشجاره عالية والثلج عليها شديد البياض.

ركع العجوزان على ركبتيهما وبدآ يجمعان الثلج، ويشكلانه على هيئة طفل صغير، شكلا الجسم ثم الرأس، ووضعا كمية كبيرة من الثلج على الرأس، وقالا: "كي ينبت شعر كثيف!"، ثم أضافا حفنتين على الخدين وقليلاً من الثلج للأنف، وحفرا حفرتين كبيرتين للعينين.

– "آه ها هو بالضبط!" قالا، وتعانقا وهما ينظران إلى ما شكّلاه، لكن فجأة توقفا وصمتا، فلقد شاهدا شيئاً غريباً، فأخذا يقتربان شيئاً فشيئاً، ثم تبادلا النظرات بصمت.

وبدهشة كبيرة جداً كانت الحفرتان في رأس الدمية قد أخذتا تمتلئان بلون أزرق، ومنه خرجت عينان تنظران بثبات، ولم يعد وجه الدمية أبيض، والخدود أخذت تظهر وتتدوّر، وبدأ يسري بها اللون الزهري، وتحرك الفم في ابتسامة لذيذة.

نفخة من الريح جعلت الثلج يهتز، ويتحول إلى شعر طويل وملتف، وعليه غطاء جلدي للرأس، وفستان أبيض لا يمكن لناظره أن يفرقه عن ثلج المكان، لقد تحولت الدمية الثلجية إلى طفلة رائعة!

تبادل العجوزان النظرات باندهاش كبير، وقالا سوية: "نعم إنها حقيقية! إننا لا نحلم، فهذه طفلة! إنها هنا إلى جانبنا قريبة منا جداً، تتحرك وتمد ذراعيها وتنادينا!".

فأخذاها، فأحسا بدفء وبدآ يداعبانها بالقبل، عندها شعرا أن الحياة انولدت من جديد في قلب كل منهما.

عانقا الطفلة وحضناها بين أذرعهما، وعادا بها إلى البيت وهما يرتجفان من شدة فيض عاطفتهما وسعادتهما.

في البيت وضعت الجدة ماريوتشا الطفلة على ساقيها، وراحت تهزهما، وهي تردد أغنية حلوة للطفلة، كي تنام.

ومن أعلى جدار المدفأة تدلى شال جلدي، وبالقرب من وهج النار وضعا الحذاء الصغير الأبيض.

اقترب العجوز يوتشوكو وقال بصوت منخفض: "اسمعي ماريوتشا! لقد صار لنا طفلة صنعناها من الثلج، وإنني أفكر بالاسم الذي سنعطيه لها فوجدت أن نسميها "سنيغورتشكا" هل يعجبك؟". هزت الجدة رأسها بالموافقة وهي تبتسم.

في تلك الليلة، نام العجوزان وهما حائران بين فيض سعادتهما وخوفهما أن يكون كل شيء مجرد وهم أو حلم جميل قصير.

لكن في الصباح كانت الطفلة معهما، وفي مكانها تضحك وتحكي تغمرها السعادة، فلقد كانت تتكلم بطلاقة، لقد صارت بهجة حقيقية للعجوزين.

في ذلك اليوم، أقيمت حفلة كبيرة في البيت، قامت الجدة ماريوتشا بتحضير كل أنواع الحلويات، أما الجد يوتشوكو، فلقد دعا الموسيقيين وكل أولاد القرية وبناتها، وانتشرت السعادة وامتدت الأغاني وطالت الرقصات حتى ساعة متأخرة.

في تلك الليلة، حلم الأطفال بسنيغورتشكا وبشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين، لقد بدت سنيغورتشكا، وكأنها جاءت من إحدى الحكايات الجميلة، وهي تلعب مع الأطفال، أخذت تعلّمهم كيف يبنون قلاعاً وقصوراً من الثلج، فيها صالات من المرمر ونوافير ماء كبيرة، لقد بدا الثلج وكأنه يطيع مخيلة سنيغورتشكا وهي تشكله بهيئات مستحيلة.

وعندما رقصت لتعلّم الصغار كيف يسقط ندف الثلج في البداية بشكل دردور، وفي النهاية بشكل بطيء، انذهل الأطفال جميعهم. لقد كانت سنيغورتشكا إحدى طفلات حكاية ثلجية.

لكن فصل الشتاء بدأ بالرحيل، والأرض المغطاة بالثلوج أخذت تعود إلى خضرتها، بدأت الأشجار تكسو أغصانها بالنّوار، والهواء يأتي محملاً بالدفء وأغنيات الربيع وأريجه، ولمعت الشمس ناصعة.

في أحد الصباحات كانت الجدة ماريوتشا قرب النار، تحرس القدر المحاط بالجمر، والجد يوتشوكو كان قد انتهى من تجميع حزمة الحطب إلى المطبخ.

لم يكن هذا الصباح مثل ذاك الصباح الشتائي الذي شاهدا فيه الأطفال مجتمعين حول دمية الثلج، فهذا الصباح كان حزيناً، وذاك صار بعيداً بعد أن أبهج البيت والحياة كلها.

تقف سنيغورتشكا إلى جانب النافذة، تنظر إلى المرج وقد أزهر وازدان والأشجار اخضوضرت أوراقها.

حذّر يوتشوكو من أن وجه سنيغورتشكا صار شاحباً، وامتلأت عيناها بحزن غريب وسأل سنيغورتشكا: "ما بك؟ هل تشعرين بسوء؟".

– "لا! لا! – أجابته بحزن – لكنني افتقد الثلج، فأنا لا أقدر على العيش بدونه، والعشب الأخضر ليس جميلاً، إن أختي البيضاء الرائعة أكثر جمالاً وروعة". وبدأت سنيغورتشكا ترتجف.

وفي اليوم الثاني بدت أكثر شحوباً وحزناً فيما ينظر العجوزان إليها بهلع.

– "ما الذي حل بالطفلة؟". سألت ماريوتشا بخوف كبير، ولم يجبها يوتشوكو الذي أمال رأسه، وأخفى علامات الألم، ثم اتجه نحو سنيغورتشكا متظاهراً بالسعادة، وقال: "بماذا تفكرين يا صغيرتي؟ لم لا تخرجين إلى اللعب مع الأطفال في الحقول؟ أم أنك لم تعودي تحبينهم؟".

– "لا اعرف يا أبتي يوتشوكو، لكنني أشعر هنا في داخلي إنني سأختنق كلما استنشقت الهواء الدافئ، وقلبي يكاد يتوقف".

– "هيا تشجعي وتعالي معنا، سأحملك بين ذراعي، ولن أدع الريح تصلك، سترين الأزهار والورود الخلابة التي جلبها الربيع".

أبعدت ماريوتشا القدر عن النار وخرج ثلاثتهم إلى الحقل، يوتشوكو يحضن سنيغورتشكا بين ذراعيه ليحميها من النسيم، فلقد كان الهواء عليلاً ودافئاً ومعطراً بعبير الورود، لكن سنيغورتشكا انقبضت، وأخذت ترتجف، شجّعها العجوزان وحملاها بين أذرعهما إلى دغل مزهر، لكن ورغم المرور بمجموعة من أشجار وارفة، فلقد جاءت حزمة من أشعة الشمس، ووصلت إلى الطفلة فجرحتها كأنها سيف.

صرخت سنيغورتشكا بلوعة ومرارة، ثم بدأت تخرج منها حشرجات، جحظت عيناها ممتلئة بالدموع على مرأى من يوتشوكو وماريوتشا وهما مضطربان مذهولان.

لقد بدأ جسم الطفلة يتقلص، وأخذ يتحلل شيئاً فشيئاً ثم ذاب ببطء حتى صار قطرات ندى على العشب، وعلى الجبال كان الثلج يتحلل مع أول إشعاعات الشمس.

اسفياتوغور والعمالقة

الجبال المقدسة في روسيا كانت عالية وعالية جداً، تخترق الغيوم بقممها. وهناك، كانت طيور النسور، تقوم بطيرانها الهادئ فوق القمم، وتحط بصمت في أعماق المضائق.

وفي مرج الأعشاب الشاسع كانت الصخور الهائلة تطلق بخاراً يرتسم في السماء مثل أشباح رمادية.

كان الساكن الوحيد لتلك الجبال المقدسة هو المارد اسفياتوغور العملاق، ولضخامته، فقد كان يشبه إحدى تلك الصخور العالية، وعندما كان يمشي يجعل الأرض ترتجف تحت أقدامه.

كان ممتطياً حصانه يتسلق أعلى القمم، يعبر الوهاد ويجتاز الأنهار بقفزات غريبة كأنه يطير.

كان اسفياتوغور يعيش وحيداً في تلك العزلة الكبيرة، جعلته قوته ينازل جميع أبطال روسيا، وعندما كان يخرج إلى الحقول والسهول كانت الأشجار تتسمر من مشيته، والأرض ذاتها كانت تهتز، ووحدها كانت صخور الجبال المقدسة تحتمل المشية الثقيلة للعملاق.

كانت قوته غير طبيعية، وكان ذلك سبباً لبؤسه، إذ كان بمقدوره أن يستغل قوته في أشياء أخرى، فلو أنه خصصها للعمل أو لخدمة الناس لكانت السعادة تغمره.

فعمره على الأرض قليل، لكن اسفياتوغور كان جاهلاً، بل كان يحوّل كلّ شيء يلمسه إلى ذرات غبار، وكل شيء كان ينسحق بين يديه الجبارتين.

في يوم ما خرج من جباله، ووسط مرج الأعشاب الشاسع نصب خيمته الرمادية اللون، وفيها اضطجع ونام حتى اليوم الثاني، حيث قرر اسفياتوغور أن يتابع المسير.

وأخذ يمرّ بقرى وضيعات ومدن، وبدأ يتعرف ويعشق الناس، أسره

الفلاحون بطيبتهم وعطفهم، وكذلك جمال النساء القرويات، وعندما مرّ بإحدى القرى رأى شابة رائعة الجمال، وعندها فكر: "هذه شابة تصلح أن تكون خطيبة لي وتستحقني بجدارة". ولم يتأخر البطل بالفوز بقلب الشابة القروية الفاتنة الجمال، وبعد قليل فاز بالزواج منها وبأخذها إلى مملكته في الجبال المقدسة.

وفي يوم كان فيه "إيليا موروميتس" المحارب الشجاع يبحث عن أماكن فسيحة، فكان عليه أن يمر بالجبال المقدسة، وخلال ثلاثة أيام قفز من صخرة إلى صخرة، وصعد القمم، واجتاز الوهاد حتى خارت قواه فنصب خيمته وربط حصانه، ونام مع أحلام عميقة.

نام إيليا لساعات طويلة، وقبل أن تخرج الشمس حلم بأشياء غريبة وهجينة، رأى وكأن جواده القوي يحفر الأرض بحوافره، ويصهل جافلاً، فيما بعد سمعه يقول بصوت إنسان: "إيليا! إيليا! انهض، انجُ من الخطر! فالبطل اسفياتوغور يقترب! هيا! اتركني طليقاً في هذه الحقول واختبئ أنت سريعاً في جذع الشجرة!".

نهض إيليا وعمل بنصيحة حصانه، فتسلق إلى أعلى أغصان شجرة بلوط، وبعد قليل ظهر "اسفياتوغور" المريع الضخم والقوي مثل الصخر، يحمل زوجته على أكتافه، تجلس في هودج من الزجاج، وفي حزامه سيف كبير جداً.

ترجل العملاق عن الحصان وبمفتاح من ذهب فتح القفص الزجاجي الذي خرجت منه زوجته الفاتنة الجمال والرائعة مثل الصباح.

وبينما كان "اسفياتوغور" يجهّز خيمته بسطت الشابة على الأرض حصيرة، وأخرجت من الخرج كمية كبيرة من الطعام اللذيذ ومشروبات حلوة مثل العسل.

خلال الأكل كان "ايليا" لا يتحرك بين أغصان الشجرة مختفياً عن عيون العملاق، لكن المرأة كانت قد رأته وخشيت من غضب زوجها، فجعلت "إيليا" وحصانه يختبئان في إحدى جيوب اسفياتوغور الضخمة، الذي من غير أن يدري مضى بالحمولة ليومين، وفي اليوم الثالث بدأ حصان "اسفياتوغور" يصدر إشارات تعب، فزأر البطل: "آه أيها الحصان! هل أصبحت شائخاً وغير مفيد! ألا تستطيع المسير بعد؟".

أجاب الحيوان الذكي: "كنت أحملك أنت وزوجتك، لكن منذ ثلاثة أيام أحمل على ظهري حمولة زائدة".

فتّش "اسفياتوغور" جيوبه الضخمة فعثر فيها على "ايليا" وحصانه فقال له: "من أنت؟".

فأجابه: "اسمي إيليا، وكانت عندي رغبة بإبداء إعجابي للبطل اسفياتوغور".

– "ها أنا أمامك، وهذه فرصة لنكون أصدقاء، وستكون شاهداً على أفعالي العظيمة".

قبل إيليا مشكوراً، واستعد للمشي إلى جانب صديقه العملاق. وبدأ اسفياتوغور يعامله كأخ له، يتقاسم معه الأكل والشراب من الكأس نفسها.

في يوم من الأيام كان البطلان يعدوان في المرج الشاسع فعثرا على تابوتٍ كبيرٍ جداً مغطى في كومة من الحبوب.

توقف اسفياتوغور يفكر، وقال: "فلنفحص لمن كان ذلك معداً؟".

دخل إيليا أولاً، لكن القبر الصخري كان كبيراً جداً بالنسبة لمقاسه، فدخل اسفياتوغور في التابوت الغريب وكأنه كان معداً لمقاسه العملاق.

– "يبدو أنه معدٌ لي – قال اسفياتوغور وأضاف– يا إيليا! يا صديقي وأخي! هل بإمكانك وأنا هنا في جوف التابوت أن تغلق الغطاء؟".

– "لا يا أخي! إني أخاف ذلك"، أجاب إيليا.

تدخل اسفياتوغور وأخذ الغطاء الحجري الضخم بإحدى يديه، وعندما أطبقها أحكمت الجوانب وأقفل التابوت بشكل كامل، وعبثاً أخذ اسفياتوغور يتحرك، ويتلوى في الداخل.

– "إيليا يا أخي العزيز! خذ سيفي وحطّم جدران هذا القبر اللعين".

أخذ إيليا السلاح الفتاك، وأفرغ ضرباته الجبارة على الحجر، وهو يسمع زئير اسفياتوغور يختنق في الجوف.

أحس بأن قوته تتضاعف، فعاد وأخذ السيف وبدأ يضرب من جديد، ومع الضربات القوية كانت تتطاير شظايا الصخرة والشرر من السيف.

– "إني اختنق! – زأر اسفياتوغور – تعال يا إيليا يا أخي! اقترب جيداً! أريد قبل أن أموت أن ألصق بك السر الرفيع لقوتي". وأخذ صوت العملاق يضعف وكأنه يختنق.

– "وداعا يا رفيقي، لقد لصقت بك قوتي وسيفي الجبار".

كانت هذه الكلمات الأخيرة، وكانت آخر أنفاس العملاق الذي مات وهو يصارع الموت.

وقف إيليا مستنداً إلى سيف اسفياتوغور وسط صمت المرج الشاسع، لكنه أحسّ بقوة جبارة، تسري به، فراح إلى جانب قبر صديقه، وأخذ يدور حوله مرات ثلاث، ثمّ ودّعه، وعاد في الطريق إلى روسيا قاصداً قصر عمه "فلاديميري نور الشمس"؛ أمير مدينة كييف، وقد اكتسب إيليا القوة والشجاعة اللتين حملتاه إلى أن يحقق المآثر المدهشة مع مردة آخرين في قصص مثيرة.

انضم إيليا إلى ستة من المردة راحوا يمتطون خيولهم، يعبرون الصحراء إلى أن وصلوا إلى سفح فيه أشجار بلوط قديمة، ولأنهم كانوا متعبين جداً نزلوا إلى الأرض، ونصبوا خيامهم، واضطجعوا ليرتاحوا، بينما راحت الخيول ترعى في الجانب.

عندما أعلنت الشمس عن النهار بشفقها الأحمر نهض إيليا موروميتس ونظر إلى البعيد، كانت مجموعة من التتار تحجب الأفق، وتتقدم، تلفها غيمة من الغبار، تغزو السهل، وكأنها إعصار عنيف.

صرخ إيليا: "انهضوا أيها المردة! فالتتار قادمون نحونا". فنهضوا وحملوا سلاحهم وانطلقوا لمواجهة التتار، وسرعان ما انتصروا عليهم.

كان الأعداء المهزومون يملأون السهل، بينما المردة يطلقون صرخات المنتصرين: "أية قوة يمكن مقارنتها بقوتنا؟". وصرخ "اليوشا بوبوفيتش": "لا يوجد جيش يقدر على هزيمتنا!".

وقال إيليا: "السيف الذي منحني إياه اسفياتوغور لا يُهزم، لكن في تلك اللحظة وكأن الأرض انشقت وانبثق منها محاربان مسربلان بمعادن تلمع، واتجها نحو المردة قائلين: "جئنا لنمتحن قوتنا نحن اثنان وأنتم سبعة، لكن لا يهم فلنتحارب!".

امتلأ قلب اليوشا بوبوفيتش بالغضب، امتشق سيفه وهجم على خصميه غريبي الشكل، لكن آه منك أيتها المعجزة! فعندما ضربهما "اليوشا" فقد تحولا إلى أربعة.

جرّد "دوبينيا نيبريتش" سيفه، وتقدم نحو الأربعة ووقف وسطهم، لكن وللغرابة أيضاً، فلقد تحول الأربعة إلى ثمانية، وأخذوا يتقدمون!

قضى إيليا موروميتس بسيفه الجبار على الثمانية، لكنهم تضاعفوا أيضا أمام دهشة المردة واستغرابهم.

وبعزم وبأس وغضب هجم السبعة سوية على أعدائهم، لكنهم كلما قاتلوهم كانوا يتضاعفون!

وطيلة أيام ثلاثة وثلاث دقائق وثلاث ثوان استمرت المعركة، حتى خارت قوى المردة الأبطال، واحتلهم الذعر فهربوا إلى الجبل لينجوا بأنفسهم، وهناك تحولوا إلى حجارة وبقوا إلى الأبد، وهكذا يروون عن نهاية الأبطال العمالقة في روسيا المقدسة.

بلاد الراين

الماء الصافي في أعالي الجبال، والبحيرات السويسرية تتطاير مياهها في الأبراج سريعة، وتجري فيما بعد صافية هادئة بين أدغال الغابات السوداء، تغرق المياه في مسارها بين هوامش في صخور عالية، مكللة بالآثار والقلاع التي تحكي عن حياة الناس في المدن القديمة وضواحيها، ويستمر الماء بطيئاً وعريضاً نحو البحر عبر الأرياف الهولندية.

في حوض الراين، عاش سليلو قبائل الجرمان الذين أقاموا هناك أجيالاً وراء أجيال، نقشوا في ذاكرة حياتهم أجمل الحكايات.

الفارس الأخير

يقفز نهر "Aer" بين الصخور الكبيرة، فيصقلها بمياهه، وينحرف هادئاً تحت ظلال الغابات الكثيفة. يجري في السهل، يصعد في تدفقٍ جارفٍ ويدخل في وادٍ ضيق تحيطه الروابي.

إحدى التلال القريبة من ضفاف النهر من منحنياته الصخرية والمتشظية تقبع عليها آثار قلعة التينار مغطاة بالنباتات المتسلقة.

منذ سنين عدة هُجرت القلعة الرائعة، والعرق البشري الأرجواني لمالكيها القدماء قد قُضي عليه في معركة مأساوية.

كان "الكورت دي التينار" آخر سلالة العائلة النبيلة، كان فارساً شجاعاً ومحباً للحرية، لم يسمح أبداً أن يفرض أحد عليه أي شيء لا يتلاءم مع كرامته وعزته، في مرحلة كان الأمراء فيها يفرضون، وبشدة، الضرائب والخدمات لصالح الإقطاع والنبلاء.

الفارس كورت اعترض، وبقوة، على ذلك الجور غير آبه بالتهديدات. وعندها بعث الأمراء جيشاً كي يحاصر القلعة المتشامخة، أغلقوا بوابات الحصن، وخاض كل الرجال مقاومةً بطولية.

كانت السهام تصدر صفيراً، وفي المجنبات المنحدرة كانت تتدحرج الصخور الكبيرة التي كانت تُقذف من الأعلى. والمحاصرون الذين تجرّأوا على الاختباء في الصخور، أفادوا من تلك الصخور التي جعلت قفز المهاجمين مستحيلاً.

امتد الحصار عدة أسابيع، وصار نقص الأكل في الحصن هو العدو الأكبر للمدافعين.

رأى الكورت دي التينار اقتراب اليوم الذي عليه توزيع آخر الخبز بين رجاله. وبعدها عليهم الاستسلام أو الهلاك.

امتد الحصار من غير أن تهبط معنويات المحاصرين، وعلى العكس،

يوماً بعد يوم كانت الهمم تضعف عند الذين يحاولون الهجوم والدخول إلى الحصن أمام الصعوبات للسيطرة على تلك القلعة الحصينة وإخضاعها، والتي كان وضعها يجعل محاولاتهم الهجومية ضرباً من المستحيل.

المدافعون كانوا شجعاناً ومستبسلين، عندها أحسّ الأمراء بالرعب واليأس يتفشى بين رجالهم المحاربين، فخشوا أن يندلع تمرد بينهم بين لحظة وأخرى.

بعض الخدم الإقطاعي اختفوا هاربين من تلك الحرب غير المفيدة والخطرة. والتمرد سينشر الفوضى وعدم التنظيم في الجيش الذي يفرض الحصار.

وفي صباح دافئ ومشرق ظهر المسن كورت بشعره الأبيض فوق أعلى أبراج القلعة يمتطي خيله ومدججاً بكل الأسلحة.

المظهر النبيل للفارس، بوجهه الشاحب الذي يداعبه الهواء الطل، وبريق سلاحه الفولاذي وخيله الأسود المتألق، كل ذلك كان يمنح الفارس الهيبة والسحر. فتثبتت كل النظرات عليه، وصمت الجميع حتى الوادي ظل صامتاً في ذلك الصباح المشرق والدافئ!

مدّ الكورت دي التينار ساعده في إشارة تحية وقال بصوت جهوري:

"هنا الرجل الأخير! والخيل الأخير! لكل الذين عاشوا في هذا القلعة الحصينة! فلقد قضى الجوع على رجالي وأبنائي! وقد ماتوا جميعاً، لكن بكرامة لأنهم يعشقون الحرية، ويبغضون طغيانكم. أنا أيضاً سأموت بالطريقة التي عشت فيها حرّا دائماً من كل العبودية كأي فارس حقيقي".

وعندما قال ذلك عند حافة البرج، لكز خيله بمهمازه، وأطلق صرخة على الحيوان النبيل الذي صهل صهلة غضب، وانطلق إلى الفضاء بوثبة مخيفة.

سقطت خيول من جهة المنحدر الصخري المتشظي، وتدحرجت محطمة حتى غرقت في ماء النهر وإلى الأبد أمام الخيل الأخير لـ"التينار".

لم يتجرأ أي من المحاصرين على دخول الحصن الصامت للأبطال، فرعب الميدان جعلهم يفرّون من ذلك الوادي المفزع.

وهكذا استمرت القلعة حصناً أبياً ووحيداً طوال الوقت الذي غطى آثارها بوشاح من الحجر.

الطفلة العملاقة والفلاح

منذ زمن بعيد، كان الناس في تلك الحقبة الغابرة يروون أنهم رأوا أشياء رائعة، وكائنات غير طبيعية وغريبة. في تلك الأزمان يقولون إنه في القلعة الكبيرة جداً في "نييدك" كانت هناك عائلة من العمالقة.

لم يبق من القلعة الآن أي شيء أكثر من أنقاضها وآثارها، لكن رجال القرى التي حلت محل القلعة يروون تواريخ مثيرة للفضول، سمعوها عن آبائهم وأجدادهم، ويحكون عن القوة والهياكل الضخمة لأولئك العمالقة الذين كانوا يصنعون حياة متكاملة في تلك القلعة دون التعامل مع الناس، ودون أن يقوموا بأدنى فعل يضرّ، إنما كانوا رحيمين متسامحين وطباعهم حلوة.

كلّ الناس يتذكرون أن ذلك الإقليم له سمة نبيلة وأصيلة، من سمات القلاع القديمة في "نييدك"، وعندما يروي الفلاحون ذلك فإنهم يحكونه بانفعال وعلى شرف ذكرى أسلافهم.

يقولون: "إن الابنة الوحيدة لملاك القلعة ابتعدت في أحد الأيام، تتمشى بين أشجار الصنوبر وكروم العنب حتى وصلت إلى هضبة قريبة لمركز حكم القلعة، أي إلى المكان الذي يمكن منه السيطرة على القلعة، حيث الوادي ينقسم إلى قطع من الأراضي الفلاحية.

الطفلة العملاقة الطويلة مثل أعلى شجرة صنوبر توقفت لتنظر إلى بعض الكائنات الغريبة التي كانت تتحرك هناك في الأسفل، وتقوم بحراثة الأرض.

تقدمت قليلاً فاكتشفت أن تلك الكائنات كانت رجلاً يحرث الأرض بمحراثه المربوط بزوجين من العجول، وخلال دقائق عدة، راقبت الرجل بفضول وهو يحرث حقله.

كان ذلك مجهولاً وغريباً بالنسبة لها، فصارت تنظر إليه كما ينظر الأطفال إلى تعذيب النمل في جحره، كان منظر تلك الهيئات

المتحركة بالنسبة لها رائعاً وهم يصنعون في الأرض خطوطاً طويلة ومتقاربة فيما بينها.

قفزت الطفلة العملاقة، وتطايرت من الفرح، وملأت الوديان برذاذ قهقهاتها.

الفلاح العامل توقف متعجباً، والعجول جفلت، وتوقفت مذعورة، وقبل أن يدرك الفلاح ما يجري، اقتربت الطفلة نحو الرجل والعجول وأخذتهم وهي في حالة من الفرح كما لو كانوا دمى أطفال.

عادت إلى القلعة، كانت سعيدة ومبتهجة وهي تعرض لقيتها إلى والديها.

– "انظروا! انظروا إلى ما عثرت؟! لا توجد دمى أجمل من هذه! أليست جميلة حقاً؟ إنها دمى حقيقية حيّة! سترون كيف تتحرك وتصنع خطوطاً مستقيمة ومتقاربة!".

وبينما كانت تتكلم وضعت الفلاحين وزوجي العجول ونير الحراثة والمحراث على الطاولة الضخمة كمسرح الحفلات. ودفعتهم كي يبدأوا بالعمل. لكن الطفلة توقفت عن الكلام والضحك أمام النظرة القاسية لوالديها.

العملاق صاحب اللحية الثلجية قال بحنان وجدية: "هل تعرفين جيداً ماذا أحضرت يا بنيتي؟ هل تعرفين ماذا فعلت؟ هذا الذي تسمينه دمية هو رجل فلاح، لقد أرعبته عندما كان يشتغل! واقتلعته من بين الفواكه، الثمار التي تتغذين عليها وتمدَّ أهلك بالحياة! فمن غيره ما كانت الحياة ممكنة لنا! هذا العامل المسكين هو الأكثر نفعاً وفائدة من كل الرجال، فالآخرون يمكنهم الحياة بفضل عمله، وجهده هو الجهد الأكثر نبلاً وعطاءً، فلا المطر ولا البرد ولا الشمس اللاهبة قادرة على إبعاده عن الأرض التي يحرثها ويحرسها بحب. كل عامل يستحق الاحترام، والفلاح هو أكثر الذين يعملون، إنه ليس دمية! لا يا بنيتي! هيا! خذيهم بحذر شديد وبعناية إلى المكان نفسه الذي أحضرتهم منه، واحمهم من أي مكروه! ولا تنسي أن من لا يحترم الفلاح ولا يحبه، ويصنع منه ضحية لأنانيته، فإنه يجلب اللعنات من السماء".

طلبت الطفلة العملاقة وابنة العمالقة المعذرة، وحملت بانتباه كبير الفلاح وزوجي العجول، وهم يهتزون في راحة يدها، وأعادتهم كي يحرثوا في أرضهم أثلاماً جديدة".

حكاية المحتال تيل

من حكاية شعبية قديمة في ألمانيا تروي مغامرات أحد المحتالين الذي عاش بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والذي كتب عنه الروائي الفلامنكو كارلوس دي كوستير في ١٨٧٦، وهو عمل يعتبر من أجمل نتاجات الروح الإنسانية عن حكايات الفرح والمغامرات والبطولات لشخصية "ايولن شفيغيل" و"لام غويدزاك"[١] وحكاية تيل ايولن شفيغيل.[٢]

كان "تيل ايولن شفيغيل" أحد أكبر المحتالين الذين يتفننون في الضحك على الناس وخداعهم، ومن الذين يحلو لهم العيش من غير عمل ولا انشغالات أو مسؤوليات تحررهم من اكتشافهم وملاحقتهم بسبب أعمالهم وألاعيبهم السيئة.

ولد تيل في قرية صغيرة في ساجونيا (Sajonia)، شبّ سليماً معافى منيعاً ولم يتأخر في إعطاء إشارات حياة مكر ودهاء أدهشت كل من عرفه.

كان عمره ١٤ سنة عندما انتقل مع عائلته للعيش في قرية قريبة من مدينة "مغديبورغ"، إذ مات والده بعد فترة قصيرة، ومن ذلك الوقت صار يتصارع مع أمه؛ لأنه كان يحصل على مبلغ من عمله، لكن هكذا كان تيل جاهزاً للإطاعة والخنوع، وأن يترك هواياته، وحبه للتعلم في القرقوز التي كان يقضي فيها أغلب وقته اليومي.

ولأن الجزء الخلفي من بيته كان يطل على النهر، فلقد ثبت تيل حبلاً في شباك بيتهم وربطه إلى شجرة في الضفة الثانية للنهر.

وعندما صار الحبل مشدوداً ومحكما جيداً، قام تيل بالعبور عليه من طرف إلى طرف، فتجمع ناس كثيرون، وصارت فرجة كبيرة مشاهدة الصبي وهو يرقص ويقفز على الحبل بظرافة وخفة.

---

[١] Eulenspiegal and Lamme Goedzak.
[٢] Till Eulenspiegel.

جاءت أمه وأرادت أن تبعد ابنها عن تلك الألاعيب، فحذرته، ثم صعدت إلى السدة وقصت الحبل المشدود إلى النافذة، عندها سقط تيل في الماء، وفي أثناء سقوطه كان يقوم بحركات دورانية في الهواء، أمّا الذين كانوا يتفرجون عليه من أطفال وكبار فلقد بدأوا يضحكون ويهزأون ويصيحون:

"تيل!! حمّام الهنا! بالتأكيد لن تشعر بالحر! ولا بالرغبة في معاودة ذلك!".

بعد أيام قليلة سرى خبر في أنحاء القرية أن تيل يستعد لإعادة ألعابه، فرغب الجميع في أن يقضوا وقتاً من الضحك والترفيه عن النفس، فذهبوا ليشاهدوا المغامر المتهور، ولم يقتصر الذهاب على الأطفال فقط، إنما ذهب، أيضاً، رجال القرية ونساؤها.

كان تيل يتوازن على الحبل بخفة وطرافة، والجميع يتابعونه بأفواه مفتوحة وعيون جاحظة، وفي أثناء ذلك صرخ تيل:

"دعوني أرى! من يعيرني فردة حذائه اليسرى؟ سأقدم لكم لعبة مسلية جداً".

نزع جميع الأطفال أحذيتهم لأنم كانوا مبتهجين ومسحورين بتيل.

جمع تيل أربعين إلى خمسين حذاء وشكّها ولظمها في حبل، ثم رماها بين جموع الفضوليين وهو يقول:

"لأرى إن كنتم جاهزين! ليأخذ كل منكم حذاءه!".

تدافع الجميع في البحث عن أحذيتهم، كانت هناك أحذية كثيرة، وبعجلة كانوا يريدون استردادها، إذ بعد قليل صار هناك كومة من الناس يلعنون، ويصرخون ويتضاربون.

هرب تيل من شباك السدة وهو في غاية السعادة، ولم يفكر في العقاب الذي تنويه أمه له على مدار أربعة أسابيع، فقد كانت بالنسبة له قروناً من الزمن، خلالها ظلّ تيل محبوساً في البيت في غرفة مظلمة، وعندما خرج من حبسه ليأخذ من الحرية ما سُلب منه، قرر أن يجول العالم مقتنعاً بأن القرية صارت صغيرة على مغامراته، وهذا ما فعله بعد أن ترك ذكرى طيبة من مسخراته وإساءاته في أماكن عدة.

اتجه نحو إمارة "Anhalt"، حيث ضمّه الأمير إلى خدمته، ووضعه حارساً في برج مراقبة القلعة.

وفي يوم من الأيام نسي الخدم أن يأخذوا أكلاً له، وفي اليوم نفسه تسللت

قوى معادية إلى الزريبة الخلفية للقلعة، وسرقوا كمية كبيرة من الماشية.

واصل تيل في مكانه ما كان يعمل به، ومن غير أية نية بأن يعطي إشارة صافرة إنذار.

لكن الأمير ورجاله المحاربين تمكنوا من صدّ اللصوص، وأنقذوا المسروقات كلها، وعند عودتهم إلى القلعة توجه الأمير نحو تيل، الذي كان يسترق النظرات من خلف النافذة فقال تيل له:

"معاليك! إن معدتي خاوية، وخفت أن أنفخ في القرن الذي أعطيتني لأنه يصدر صوتاً قوياً وعلى معدة خاوية فإنه يسبب لي طنيناً مؤلماً".

ذهب الأمير والفرسان لتناول الطعام على طاولة كبيرة وعامرة، أقيمت احتفالاً بالنصر، وبينما هم منهمكون بتناول ألذّ المأكولات وأطيب الأطباق، أطلق تيل الإشارات الثلاث من صافرة الإنذار، وعند سماعها نهض الجميع لأخذ أسلحتهم تاركين المطعم خالياً، وأطياب الأكل على الطاولات، عندئذ لم يكن صعباً على تيل نيل مراده، فهبط من برجه بقفزات صامتة، وعبّأ قسماً من تلك الطبخات والمأكولات اللذيذة في أكياس وفي جيوبه وعاد بهدوء إلى مكانه.

تلوّن وجه الأمير عندما أحس بخديعة الصافرة، فطرد الوغد المكّار، الذي مشى في الحال، وعندما شعر بالتعب قرر شراء حصان، وفي السوق عثر على حصان رخيص، لأنه كان كبيراً في السن، وقد أسيئت معاملته، لكن صاحبه الحوذي كان نبيهاً وسريعَ الفطنة، يريد بيعه بالغش والحيلة فطلب ٢٤ فلورينا.[1]

١٤٥

١٤٤

فقال تيل له: "سأدفع لك الآن ١٢ فلورينا، ويبقى تطلبني ١٢ فلورينا".

وافق الحوذي، فدفع تيل اثني عشر فلورينا، وأصبح مالكاً للحصان. وبعد ثلاثة شهور أراد الحوذي أن يقبض الباقي الذي وعده تيل به، فردّ تيل عليه وكأنه يستغرب:

"ألم نتفق على أن يبقى ذلك المبلغ ديناً؟ لهذا بالضبط يجب عليّ ألا أدفعه!".

[1] العملة الهولندية (المترجم).

غضب الحوذي، وتجادل الاثنان، ثم ذهبا إلى القاضي، وأمامه رفض تيل أن يدفع أي مبلغ قائلاً:

"أنا اشتريت الحصان بشرط، وهو أن أدفع له مبلغ ١٢ فلورينياً عدّا ونقداً، وأن أدين له بالاثني عشر المتبقيات، وإذا دفعت له الآن فمن الواضح أنني لن أدين له، وهذا ليس ما اتفقنا عليه، فأنا رجلٌ شريفٌ ويجبٍ عليّ احترام كلامي". فقبل القاضي بهذه الحجة، ولم يدفع تيل الدين أبداً.

وبعد عدة حيل نادرة ومغامرات في ذلك البلد، انتهى تيل بالوصول إلى مجلس أمير "Hesse"، عندها سأله الأمير: "من أنت؟".

– "معاليكم! أنا فنانٌ كبيرٌ! رسّام على مستوى عالٍ جداً! إذ لن تجد مثيلاً لي في كل المملكة".

– "ابق إذاً لتزخرف لنا جدران الصالة برسومات، تمثل تاريخ أسلافنا وأجدادنا".

طلب تيل مائة فلورين مقدماً على الحساب ليشتري ألواناً، وليدفع لعدد من الرجال الذين سيساعدونه، ووضع شرطاً: أن لا يدخل أحدٌ إلى الصالةً طيلة الوقت اللازم لإتمام العمل.

وعندما اختلى تيل بمساعديه في الصالة التي سيرسمون فيها اللوحة الرائعة، قال لهم تيل:

"يا أصحابي، لقد جاءت الساعة التي سنبدأ بها راحتنا، يمكنكم أن تناموا كل الوقت الذي ترغبونه، فهنا لن نفعل شيئاً، إنما سندع الوقت يمضي! فإياكم أن يتحدث أحدٌ عن عمل هنا!".

مضت عدة أسابيع، وفي صالة القصر لم يفعل أحد أيّ شيء أكثر من الراحة والأكل من أطيب وأفخر المأكولات التي كانت تأتيهم بأمر من الأمير، وعندما حلّ اليوم الذي طلب الأمير فيه أن يشاهد اللوحة الفنية العظيمة، قال تيل له:

"معاليكم! رغباتكم أوامر! لكني أريد أن أحذركم من شرط نادر وكبير، فرسوماتي لا تبدو للعيان أمام ناظريها إن كانوا قد كذبوا في مناسبة ما من حياتهم!".

فكّر الأمير في الأكاذيب التي كان قد ارتكبها، ومع أنها كانت نادرة وقليلة، فإنه لن يجعل تيل يعرف ذنوبه.

وصلا إلى الصالة، وتيل في حالة كبيرة من القلق، لكنه رفع ستارةً كانت مخصصة لحماية الألوان وتغطية الجدران.

فتح الأمير عيونه جيداً، وأعاد فتحها كثيراً وهي مليئة بالدهشة، فلم يكن يرى شيئاً! إنما الجدار فقط! نظيف وأبيض، لكنه كتم ذلك ولم يتحدث خشية أن يعتبره مخادعاً.

وراح تيل يوضح لوحته الرائعة إلى الأمير، ويقول وهو في غاية السعادة:

"انظر يا سيدي! هذا الرجل صاحب الهيئة الكبيرة المليئة بالظرافة! إنه الأمير "هيس (Hesse) أحد أسلافكم البارزين، وهذه السيدة التي إلى جانبه هي زوجته ابنة أنبل البيوت في بافاريا، وهذا الفتى المقابل الذي تراه هنا هو ابنهم، وهذا هو الحكيم والد الأمير غيلليرم! وكما ترى فإن كل الأجداد أسلاف معاليكم قد رسمت بحرفة فريدة، ولم يبق إلا إطلالة وهيئة سيدي الأمير!".

تشوش الأمير، واحتار ولم يعرف ما يجيب به، ويخشى أن ينتقد تيل الغريب، فقال الأمير:

"إن رسوماتك لا تعجبني، أريد أن يراها أشخاص اختصاصيون يعطونها قيمتها الفنية المناسبة".

فكّر الأمير في أن يرسل وزراءه لرؤية ما بدا له حائطاً أبيض وخالياً من الألوان، وربما تكون مناسبة ليمتحن صدقهم وإخلاصهم من زيف المجاملات والتملق، وعندما علم تيل بذلك قال لمساعديه:

"يا أصدقائي ليهرب كل واحد فيكم من هنا قبل أن يتم اكتشاف الخديعة! وندفع عندها ثمناً سيئاً لما فعلناه، ولما لم نفعله بعد". فهرب جميعهم دون أن يتركوا أي أثر.

توجه تيل إلى مدينة براغ، وأخذ يعيش بالطريقة نفسها التي كان قد عاشها، فادعى أنه حكيم عظيم، يعرف ويعلم كل خفايا وألغاز العالم والعلوم كلها!

ولانزعاجهم من هذا الحكيم، اجتمع أساتذة الجامعة في المدينة، وقرروا إفشال العالم المختال الذي يعلن امتلاكه للحكمة العليا والرفيعة، فدعوا تيل للمثول إلى الجامعة للتأكد من علومه وللمناظرة العلنية والإجابة عن أربعة أسئلة، قد وضعوها.

حضر تيل في اليوم الثاني إلى الجامعة، وبعد أن جلس في كرسي الفخامة أمام منتدى العلماء، وحشد من الشخصيات، قال عميد الجامعة الوقور:

"أيها العالم البار، أجب عن هذا السؤال الأول: ما هي كمية الماء الموجودة في البحر قطرة قطرة تقريباً؟".

- "أيها المعلم المبجل- أجاب تيل- اجعل الأنهار توقف جريانها، وأن لا ترفع مستوى الماء في هذه اللحظة، كي أتمكن من حساب الكمية بالضبط".

تشوش عميد الجامعة قليلاً، فطرح السؤال الثاني:

"قل لنا أين يقع مركز سطح الأرض؟".

- "مركز الأرض موجود بالضبط هنا حيث أجلس أنا، وإذا لم تصدق يمكنك قياسه بحبل، وإن كنت أنا مخطئاً بقرط أو قرطين فإني أعترف بخطئي".

- "قل لنا الآن ما هي المسافة بالضبط بين الأرض والسماء؟".

- "لا توجد مسافة كبيرة - قال تيل- فمن السماء يمكن وبشكل جيد سماع أيٍّ كان عندما يصرخ من هنا من الأسفل، وللتأكد من ذلك فلتصعد فخامتكم، وسترى كيف تسمعني عندما أناديكم".

كتم عميد الجامعة غضبه، وطرح على تيل السؤال الأخير:

"قل لنا ما هو حجم الجرم السماوي؟".

أجاب تيل على الفور: "هل تقصد السماء؟ فالسماء لها ألف "تيوسا"[1] (Toesas) طولاً وألف عقدة عرضاً، وإن كنت لا تريد تصديق ذلك، فاطرح منها الشمس والقمر والنجوم، واحسب الحجم بنفسك! وعندها سترى أنني لم أخطئ".

وهكذا أفحم العميد وبقي الجميع مأخوذين، بينما خرج تيل من الجامعة يختال بين الأساتذة.

وبفوزه، ذاع صيته كثيراً، لكنه كان يخشى أن يثأر العلماء لهزيمتهم، فقرر هجر مدينة "براغ" وتوجه إلى" نيورمبيرغ"، حيث قدم نفسه على أنه طبيب شهير.

في ذلك الوقت كانت المشفى مكتظة بالمرضى، ولم يكن هناك عدد كاف من الأطباء في المدينة ليرعوا المرضى، وفي هذه الظروف ذهب مدير المشفى إلى الطبيب الشهير "تيل ايولن شفيغيل"، الذي بدوره قطع وعداً على نفسه بشفائهم جميعاً في لحظة واحدة مقابل مائتي فلورين، فوافق المدير في الحال.

---

[1] مقياس طول فرنسي قديم يعادل متراً واحداً و٩٤٩ مليمترا (المترجم).

وعندما حضر تيل أمام المرضى راح يقترب من كل واحد فيهم، وفي الوقت الذي كان يجس نبضهم، ويكشف عليهم، كان يقترب من مسمع أذن المريض ويقول له بصوت منخفض:

"لا تفش لأحد ما أقوله لك، فأنا أفكر بشفائكم وتخليصكم جميعاً من آلامَكم، ولأجل ذلك يلزم ومن الضروري أن نحرق واحداً منكم لنأخذ رماده، ونصنع منه الدواء الوحيد الذي سيشفي الجميع، ومن أجل إنقاذ الآخرين، يجب أن تتم التضحية بواحد، وهذا سيكون الأكثر مرضاً، فعندما أصيح بكم: على كل من هو غير مريض في الردهة أن ينهض، ويخرج منها ويعجّل في مشيته، ومن سيتأخر في ذلك سيقع عليه اختيار التضحية وفداء الجميع".

في اليوم التالي حضر تيل إلى المشفى، وعندما فعل ما كان قد قاله، وهو ما كان ينتظرونه، تعجب الجميع لسرعة المرضى وهم يقفزون أحدهم فوق الآخر، بل خرجوا إلى الشارع يصيحون، إنهم يشعرون بتحسن كبير وقد شفوا، وكأن معجزة قد حصلت لهم.

ابتهج مدير المشفى ودفع المبلغ المتفق عليه إلى تيل، لكن بعد انقضاء ثلاثة أيام، لم يقدر المرضى على التحمل بعد، فرجعوا جميعاً إلى المشفى يصرخون، ويستنجدون رعاية الأطباء فترك تيل المدينة قبل أن تنكشف خديعته.

وقد تعب من حياته، حياة النصب والاحتيال، فقال في سره: "الأفضل تغييرها وتوجيه قدراتي إلى العمل الشريف".

وبعد هذا التفكير جرّب عدة مهن مختلفة في كل القرى التي مرّ بها، لكن هكذا كانت عادته في السخرية والخديعة والاحتيال، إذ لم يبق مكان لم يخرج منه إلاّ مطروداً وملاحقاً وتحت التهديد والوعيد.

وفي الطريق إلى مدينة كولونيا توقف تيل في نـُزُلٍ صغيرٍ ليقضي هناك عدة أيام للراحة.

وفي الصباح حلّت ساعة الإفطار، ولم يكن الطعام قد جهز بعد، فانزعج تيل جداً من الانتظار ومن الجوع الذي كان يعانيه، فحذّره صاحبُ المتجر من انزعاجه، وقال له:

"من لا يوجد عنده صبر على انتظار الطعام كما يجب، فيمكنه في ساعة طيبة أن يأكل ما يقع تحت يده".

بعد هذا التحذير جلس تيل إلى الطاولة، وأكل قطعة خبز ناشفة، وبعدها ذهب إلى جانب النار، وجلس يرقب القدر ريثما تجهز الطبخة، وعندما جلس جميع النزلاء ليأكلوا، بقي تيل في المطبخ دون أن يتحرك فسأله المؤجر:

"ألا تريد أن تأتى إلى الطاولة؟".

– "لا! – أجاب تيل– لقد شبعت من رائحة الطنجرة!".

وعندما رُفعت طاولة الأكل، قبض المؤجر المبلغ الذي يدفعه كل واحد من النزلاء مقابل حصته من الأكل، واتجه نحو تيل طالباً منه أن يدفع.

– "كيف أيها السيد المؤجر –احتج تيل– هل سأدفع مقابل شيء لم آكله؟".

– "بلا أعذار– قال المؤجر– عليك دفع المبلغ الذي يقع عليك فلقد أتخمت من رائحة طبختي!".

أخرج تيل قطعة نقود من معدن الفضة وتركها تقع وترن على الأرض وأعادها إلى جيبه ثم قال للمؤجر:

"يا سيد! هل سمعت صوت قطعة النقود؟".

أجاب المؤجر: "نعم ... وأظن أنها مصنوعة من فضة جيدة".

– "هل أنت متأكد أنك سمعت رنينها؟". وأضاف تيل: "هل تقبض الرنين مقابل رائحة الطبخة؟".

وخرج تيل، وقصد طريق مدينة "مغديبورغ".

وبعد دوراته الكثيرة حول العالم، حظي تيل بتعاطف أسياد عظام، قدموا له الحماية وجعلوا منه إنساناً وديعاً.

لم يكن آنذاك قد شاخ تيل عندما شعر بالمرض، وقرر العودة إلى مهبط رأسه، لكن في مدينة قريبة من موطنه اشتد عليه المرض، فنقلوه إلى المشفى، حيث تمّ إخبار أمّه بذلك كي تأتي لتكون بالقرب من ابنها الذي يحتضر.

قدمت العجوز، ووصلت في الوقت المناسب لتحتضن ابنها، وبالسر أعطاها تيل صندوقاً قال إنه يخبئ فيه ثروة كل ما ادخره وجمعه! وقبل موته بأيام قليلة وضع تيل وصيته التي بموجبها أوصى أن كل طيباته المحفوظة في صندوق مشابه للصندوق الذي أعطاه لأمه، وأن تقسم بين عائلته وأصدقائه والكاهن.

وبعد أربعة أسابيع على موته تم فتح الصندوق الذي فيه الميراث.

لكنهم لم يجدوا فيه شيئاً أكثر من حجر! جعلت شدة وزنه الجميع يتوهمون بكمية الثروة ومقدارها التي كانت مخبأة هناك!

من هذه الخديعة الأخيرة غضب كثيراً أولئك الذين انتظروا أن يثروا بالميراث!، لكنهم تبرأوا من تيل، وندموا على مراسم الدفن الكبيرة التي قاموا بها، وعلى الزهور والورود، وعلى بكائهم ومرافقتهم للتابوت حتى المقبرة، حيث حدث الأمر الغريب وغير العادي:

في اللحظة التي أُنزل فيها التابوت إلى "فستقية" القبر، انقطع أحد الحبال التي كانت تحمله فسقط التابوت بشكل عامودي!

قال أحد الرجال: "اتركوه هكذا على هذه الحالة، فهو لم يعش مثل الآخرين! دعوه يرتاح في الموت بشكل مختلف! القوا به هكذا!".

وعلى قبره كتبت العبارة التالية:

"ألا لا يرفعن أحدٌ غطاء هذا القبر

هنا يرتاح واقفاً
تيل ايولن شفيغيل
Till Eulenspiegel
."Anno domini

لعنة الخبز

قبل مئات السنين كانت "ستافورن" (Stavoren) أغنى المدن التجارية في هولندا. كان ميناؤها غابة دائمة بالصواري والمراكب المحملة بشباك الصيادين، ومن هناك كانت تنطلق السفن التي تجوب كل البحار، وتعود محملة بالمنتجات الأكثر جمالاً والأغلى من كل البلدان.

كانت خيرات ستافورن تنمو، وكذلك تزداد القصور من المرمر المزين بالذهب. وإلى جانب ذلك، كان في المدينة ناس فقراء، بينما عدد الأغنياء المتكبرين كان كبيراً، كانوا يبعثرون ثرواتهم في حفلات فاخرة يأكل فيها الغرور والشهوات.

لم يكن أحد من بين أولئك التجار الأغنياء في ستافورن أكثر ثراءً وسطوة من الشابة "ريتشبيرتا" (Richberta)، كانت قطع أسطولها التجاري كبيرة العدد، تمخر بحار العالم، وتعود محملة بالماس والمجوهرات والذهب من أراض بعيدة.

كانت ثروة ريتشبيرتا لا تحصى، فقصرها كان الأكثر جمالاً في ستافورن، وملابسها كانت مشكشكة بالأحجار الكريمة الرائعة، وفي الحفلات كانت تستعرضها كلها ببريقها الأخاذ الذي كان يثير دهشة المدعوين، وفي الاحتفالات الكبرى لم تغب ألذ المأكولات وأغلاها وأندرها. وهكذا كانت تنمو كنوز ريتشبيرتا كما نما غرورها وازدراؤها للناس الفقراء المساكين.

في أحد الأيام وفي حفلة عشاء حضرها عدد كبير من المدعوين، حضر رجل مسن قال إنه جاء من بلاد بعيدة، ويريد أن يقدم إعجابه بثروات ريتشبيرتا التي سمع عنها في محافل الملوك الأكثر جبروتاً.

وهي تكاد تطير من ذلك المديح، رجت ريتشبيرتا من الرجل الأجنبي أن يجلس إلى طاولتها.

كان الرجل الغريب يلبس على الطريقة الشرقية، ويظهر إحساساً

بالكرامة والنبل عبر حركاته وإيماءاته، وفي عينيه كان يخفي نظرات ثابتة فيها طاقة الشباب.

وعند اقترابه من ريتشبيرتا كان ينتظر أن يرى في يدها الخبز والملح الذي يقدم في بلده إلى الزائر الضيف في إشارة للترحيب والضيافة، لكن على تلك الطاولة المليئة بألذ الطعام وأكثره ندرة لم يكن هناك خبز! كلّ شيء كان متوفراً حتى الورود والزجاج ماعدا غذاء الفقراء والمساكين.

جلس الضيف إلى الطاولة، وفي نهاية العشاء حكى عن حياته الجوالة بين كل بلدان العالم، تحدث عن أراض بعيدة ورائعة، وعن عادات شعوب الشرق، وعن مغامراته الشخصية في الرحلات الطويلة، تحدث عن أفراحه وأحزانه بين الناس الفقراء والناس الأثرياء، وعن الأراضي الخصبة الطيبة، وعن استحالة السعادة البشرية.

كل الذين كانوا يأكلون على المائدة كانوا مهتمين بالروايات التذكارية للضيف الغريب. كلهم ما عدا ريتشبيرتا فلقد كانت تنتظر سماع المدائح فقط عن ثرواتها. فعندما تحدث المسافر عن المحافل الفاخرة للملوك، قارن قصورهم وكنوزهم بما تملك ريتشبيرتا، لكنها تفاجأت عندما قال: إنه لا يجد على الطاولة الضخمة للدعوة ذلك الشيء الذي يقدره كل العالم كأفضل وأكثر ضرورة من كل الخيرات. ولم يقل الأجنبي أكثر من ذلك، وعبثاً كان سؤالها وإلحاحها في أن يفسر معاني كلامه، لكنه سرعان ما حيّاها باحترام ومضى دون أن يعرف أحد عنه أي شيء.

المتعجرفة ريتشبيرتا لم تقوَ على مقاومة معاناة الحيرة تلك، فلقد كانت تملك كل الأشياء التي تمنتها، وقصرها كان مليئاً بكل الأغراض الثمينة ومن كل الثروات وأطياب أكل الأرض والبحار، فما هو الشيء الذي كان ينقص والذي يعتبر أفضل كل الخيرات؟

حاول حكماء كثيرون ومنجمون اكتشاف اللغز، وكانت ريتشبيرتا تفقد الصبر، وهي مصرّة على أن تعثر على ذلك الخير الكبير، ولذلك أمرت أن ينطلق أسطولها في البحر. وأن لا يعود إلاّ وقد استطلع كل البحار وكل اليابسة.

نفخت الريح أشرعة مائة مركب لرحلات طويلة، وتشققت قبعات البحارين، وامتزجت مياه البحر الأجاج بالمؤونة المخزونة، فأتلف الملح كميات الخبز وأكياس الطحين.

كما نفدت كمية النبيذ الفاخرة والأسماك واللحوم المقددة بالملح، وصار نقص الخبز معاناة لا تطاق، فطلب ربان البحارة أن يعود إلى الميناء

الأكثر قرباً من أجل الحصول على الطحين، وعندها عرف قبطان الأسطول ما هو الشيء الأفضل بين كل الخيرات.

لم يكن الذهب أو عطور الشرق ولا البهارات الطيبة الفاخرة ولا اللآلئ في أعماق البحر. كان ذلك هو الخبز ... خبز كلّ يوم ... غذاء الفقراء والأغنياء ... لقد تم اكتشاف اللغز في كلام ذلك الغريب الذي قاله في الحفلة الكبيرة.

ومع هذه الأفكار اتجه الربان مباشرة نحو ميناء البلطيق، فحمّل سفنه بحبوب القمح القوية والمذهبة وعاد سعيداً منتشياً إلى ستافورن.

– "سيدتي ريتشبيرتا! هنا أحضر شحنة من الكنز الثمين! إنه الخبز! إنه ما كان ينقص على الطاولة! اسمعي كيف وصلت لاكتشاف ما كان يفكر فيه ذلك المسافر الغريب.

تركت ريتشبيرتا القبطان يتكلم وصاحت بحالة من الغضب: "اسمع جيداً ما آمرك به! حضّر رجالك! وقبل أن يحلّ الليل يجب أن تلقى شحنتك الغبية في البحر!".

وعبثاً كان احتجاجه ومحاولته للتوضيح، وعبثاً توسل ريتشبيرتا أن لا تدمر ثروة يمكنها أن تنهي بؤس فقراء المدينة ومجاعتهم، لكن الشحنة الثمينة أُلقي بها إلى البحر على مرأى حشودٍ من الجائعين، كانت تلعن ريتشبيرتا وجبروتها وإساءاتها.

الكمية الهائلة من الحبوب الذهبية اختلطت في البحر مع طمي القاع، وبعد فترة لا بأس بها بدأت تنمو هياكل مستقيمة وصلبة وأخذت تنمو وتنمو بقوة، ارتفعت من أعماق البحر بصخب مرعب أكوام من الرمال والطمي التي امتزجت بين غابة كثيفة من القصب، فتشكل بذلك ارتفاعات كبيرة كالروابي، لقد نما القمح حتى سطح الماء، وشكّل أمام ستافورن حاجزاً لا يمكن تفتيته.

إلى الميناء الرائع في "زويدرز" (Zuiderzee)، عاد البحارة وداروا ولفوا أياماً وليالي دون أن يقدروا على عبور ذلك الجدار المائي، ورويداً رويداً بدأت الأمواج تتحطم على سور الطحين، وفقدت ستافورن بشكل سريع ثرواتها وقوتها. هاج البحر وهدر، يرغي زبده الأبيض أمام المياه الهادئة في الميناء القديم.

وبعد زمن لا بأس به جاءت ليلة عاصفة، وحطمت بقوة الحاجز فوصلت المياه إلى المدينة تسحبها و تجرجرها حتى الأعماق على ألواح من القمح البحري، وغمرت مياه زويدرز الوادي العريض، حيث كانت ستافورن.

وفي أيام الهدوء، يقترب البحارة بحذر من مقدمات سفنهم، لينظروا إلى الأسفل، إلى المياه الشفافة، ويروا الأجراس العالية والأبراج والقصور في المدينة المغمورة بالماء.

اسكندينافيا

من القمم والذرى العالية المغطاة بالثلج، تندفع السيول حتى الشواطئ النرويجية، وتصب في خلجان عريضة وعميقة.

ومن أعلى الذرى الثلجية تأتي السيول والأنهار إلى مسطحات السهول السويدية وتستقر في البحيرات التي لا تحصى حول أشجار التنوب والصنوبر والبتول في الغابات العملاقة.

الرجل الاسكندينافي رجل قوي شجاع وجاد، ويحب العمل. يروي عن أسلافه "الفايكينغ" البحارين العريقين في ركوب البحر ومكتشفي البحار ومكتشفي أراضٍ، وخالقي ميثيولوجيات أثّرت في الحكايات والأساطير وفن شعوب أوروبا.

الملك الذي جاء من البحار

قبل زمن بعيد كانت الأساطيل الجبارة للفايكينغ تعبر بحار الشمال، تتحدى مغامرات الحرب والغزو. في ذلك الزمن، كانت الجزر البريطانية الصغيرة ملاجئ وحصوناً لأولئك الأفظاظ ومحترفي القتال المغامرين، الذين كانوا يصلون الخلجان، وينهبون الشعوب والمدن الساحلية.

في ذلك الوقت، لم يكن للدانمرك ملك ولا حكومة، وفي الحرب المستمرة مع الفايكينغ اعتاد الأسياد على النهب والفظائع، واستعبدوا الفلاحين وصيادي الأسماك في تلك البلاد.

في أحد الأيام، لاحظ الناس على الشاطئ ظهور شيء يتقدم مثل الظلال وملتف في سلسلة غيوم بحرية، لقد كانت سفينة هائلة تأتي من بحار الشمال.

السفينة كانت تتقدم شيئاً فشيئاً منتفخة أشرعتها المربعة والفاتحة اللون، وتكشف عن مزخرفات ومنحوتات خشبية في مقدمة السفينة، ثم بدأ يظهر رأس ضخم لتنين بلون أحمر والشراع العريض مثل القبعة السحرية بثنياتها وطيّاتها.

الصيادون شاهدوها مذهولين وهي تبرز من بين الضباب مزركشة بالزينة والمرايا، وتتقدم تلك السفينة الشبح بصمت حتى ارتطمت بالرمل. ابتعدوا جميعهم، وأخذوا ينظرون من بعيد، فلم يشاهدوا أحداً على السفينة اللغز ولم يسمعوا صرخة أو صوتاً.

ومن الأراضي القريبة من الساحل جاء الرجال، وقد تركوا حراثتهم وقطعان ماشيتهم والشباك والقوارب الصغيرة البحرية، لقد تركوا كل شيء وجاءوا ليروا سفينة جبارة، فأبداً لم يخرج من البحر شيء مثيل من بين الضباب وكل هذا الصمت!

لم يجرؤ أحد على الاقتراب، وفي الليل اجتمعوا كلهم، وتحدثوا برعب وخوف. هل كان عليهم الهرب؟ هل كانت تلك السفينة

محملة بالأعداء المسلحين جيداً؟ هل هي سفينة للفايكينغ الذين لن يتأخروا بالخروج وسرقة القرى الفقيرة وحرقها؟

أخذوا يرقبون وهم يخشون الخطر، فلم ينم أحد في تلك الليلة، وفي اليوم التالي عند الفجر ظهر محاربون كثيرون في السهل، جاءوا ملتفين بغيوم من الغبار الذي تحدثه خيولهم مع وقع حوافرها القوية. جاءوا تلمع قبعاتهم ودروعهم وأسلحتهم ليقاتلوا ضد السفينة الغريبة للفايكينغ. كان الأسياد يرسلون الجيوش المؤلفة من رجال لهم عضلات مفتولة وعارين، لونهم أحمر، وشعرهم طويل، وبملامح وهيئات متوحشة ووجوه محزوزة ومليئة بآثار جراح عميقة.

توقف المحاربون قريباً من السفينة الغريبة مذعورين أمام الزركشة الرائعة للقبعة والتنين في مقدمة السفينة، وقد ألبسوه شرائح من ذهب وبعينين واسعتين وملونتين براقتين.

صار ينظر أحدهم إلى الآخر ويتساءلون:

"يا ترى من أي مكان قد جاءت هذه السفينة الرائعة الجبارة؟ هل وصلت من أراضي الـ"ساجوناس" من السويد؟ أم من مناطق الغرب الهجينة؟ من هم؟ وماذا يبتغي ركابها؟ ولماذا يختبئون؟ هل وجدوا أنفسهم مجبرين من قبل الرياح إلى الوصول إلى هنا؟ وهم خائفون الآن من أن يجدوا خصوماً أقوياء وأشداء!".

بعض المتهورين اقتربوا من السفينة، وهم في حالة احتراس، وصاحوا: "كان من كان هناك! أطلّوا بوجوهكم! هيا للقتال للقاء رجال الدانمرك! انزلوا! فالرمل ميدان جيد ويمتص الدم من الجراح! تعالوا فملامح الفايكينغ لا تخيفنا!".

ومن المركب لم يجب أحد، فهاج المحاربون الدانمركيون وبدأ بعضهم يطلق السهام، وامتشق آخرون الفؤوس، ووثبوا إلى السفينة، وهم يطلقون صيحات الحرب.

لكن في السفينة لم يكن هناك أعداء، إنما إلى جانب الصارية وفوق سجادة وثيرة وسميكة من الحرير كان وحيداً ومضطجعاً على حزمة حطب مذهب، ينام طفل صغير وعار تقريباً، وحول ذلك أكوام تبرق مثل غنائم مغامرة فاتنة: أسلحة من ذهب! أسلّحة مصقولة! خناجر بقبضات من المرمر! وأحجار صوان مزركشة! وأسنان ذئاب! دروع ضخمة! ومنحوتات من البرونز بمزخرفات مذهبة! قطع من الأحجار الكريمة! قبعات تبرق وعليها أجنحة من ذهب! وغوايش من

الأحجار الكريمة! وسهام! وقرون حيوان الوعل ملبسة بقشور عرق اللؤلؤ! والفولاذ المسنن مثل ورقة الصفصاف! أبواق وقرون من العاج مليئة بالمجوهرات! أكواب! كؤوس! وجرار منقوش عليها! وعقود من زمرد وطوباز! والحرير! والطلاء!

وأمام ذلك الكنز نحّى المحاربون أسلحتهم جانباً وبدأوا يتأملون الطفل المضطجع على حزمة حطب مذهب. فاعتقدوا أن الآلهة أرسلت تلك السفينة كإشارة للخير والسلام.

وبالزنود القوية للمحاربين الأشداء، رفعوا الطفل وحملوه كشارة نصر بين الحشود المتجمهرة التي تصيح مبتهجة، وأمام مجلس السادة تم إعلان من أرسلته الآلهة ملكاً للدانمرك، الطفل الذي جاء من البحر محاطاً بالدروع، لهذا سيكون الدرع المستقبلي في الدفاع عن البلاد، وتم إطلاق كلمة "سكويد" (Skiod)، أي "درع" على الطفل كاسم له.

لقد توافقت قوة "سكويد" وشجاعته ونبله مع آمال الشعب، فلما صار شاباً أصبح واحداً من أشجع الصيادين، وفي أحد الأيام، وبينما كان ذاهباً مع حشمه ضاع في الغابة، فهاجمه دب ضخم، لكن سكويد لم يهرب، إنما صارع الوحش جسماً لجسم، وسيطر عليه، بل هزمه ثم ربطه بقوة، حتى وصل رفاقه. وفي الخامسة عشرة من عمره تقدم الجيش وهزم الساجونيس، وهناك في ميدان المعركة انهزم قائدهم، وفيما بعد تزوج سكويد من ابنة ملك المهزومين، فكان طوال حياته مثالاً للنبل، طيباً وعادلاً شديد البأس على الأعداء ورحيماً وكريماً على رعيته، كانت أحكامه قويمة وصارمة، سواء على القوي كما على الضعيف والمسكين، لقد خصص حياته الطويلة لخدمة بلاده، وعندما شعر بأن حياته بدأت تنتهي، استدعى نبلاء مجلسه وقال لهم:

"انظروا يا أبنائي ... عندما تُغْلقُ عيناي وإلى الأبد ... خذوا جسمي إلى شاطئ البحر ... فهناك في لسان الخليج لا يزال المركب راسياً ... المركب الذي أحضرني وأنا طفل ... ضعوني فيه ... وانصبوا الأشرعة واتركوه للبحر وللرياح ... أريد أن أرحل على الشكل الذي جئت فيه ... لقد أتممت مهمتي ... فمن بلدٍ بائسٍ ومنقسمٍ على نفسه جعلت منه بلداً موحداً وسعيداً".

مات الملك سكويد، وقد كفنوا جسده بثياب ثمينة ومعطرة، ووضعوا

له إكليلاً حقيقياً، وفي الخصر السيف المنتصر، ثم رفعه رجاله المحاربون بزهو بين الحشود التي كانت تبكي ملكها، وأخذوه إلى البحر، إلى السفينة وأشرعتها القرمزية والقبعة المطلية والبراقة.

هناك بالقرب من الصارية وضعوا جسم الملك الحكيم، وجاء الناس من كل حدب وصوب؛ من القرى، والبلدات يحملون الهدايا الثمينة، نساء ومحاربون ونبلاء وناس بسطاء وفقراء كلهم أحضروا أغلى ما عندهم من ثرواتهم، ومما يحتفظون به من الأسلحة الفاخرة التي غنموها في المعارك، ومن العقود والخواتم ومن الأحجار الكريمة، ومن صناديق وخزنات مليئة بالحلي وقطع نقود ذهبية، وقبعات، ودروع، وفؤوس، وأبواق، وقرون من الياقوت، وكؤوس كبيرة، وصوان من الفضة مليئة بالأحجار الكريمة، وكل شيء. لقد جمعوا كنزاً حول جثمان الملك، ووضعوا في يده سهم الحرب، وتحت رأسه حزمة من السنابل التي تم قطعها حديثاً.

كل الشعب كان ينظر، وأجواء الفجيعة تلف الصمت، وأخيراً تم حل الشراع القرمزي اللون، وآلاف الزنود القوية دفعت السفينة الراسية على الرمال، ورويداً رويداً بدأت الأمواج تهزها وتبعدها عن الشاطئ.

في الصباح المعتم بالضباب، أبحرت السفينة الجبارة، سفينة الملك سكويد، وراحت تبتعد مثل الظلال باتجاه بحار مجهولة، حيث كانت الآلهة قد أرسلتها، واختفت في الأفق مغطاة بضباب كثيف.

كيف تشكلت جزيرة دي سي لاند؟ *

قبل زمن بعيد كان الملك الرحيم "غيلفوا" (Gylfwa) يقيم مجلسه في"أوبسالا" (Upsala)، المدينة القديمة المحاطة بقبور الملوك الوثنيين، كانت أراضي المملكة واسعة خضراء كثيفة الغابات، وتحت سلطته توسعت كثيراً إلى أبعدٍ من الأفق الذي يُرى من الأبراج العالية للقلعة، لأنه لم يكن ممكناً الوصول إلى نهايتها عبر رحلات من ركوب الخيل.

عاش الملك الشائخ وبشعر ثلجي ليتأمل ويحكم مملكته، ولم يكن يُعرف شيء عن عائلته، وربما لم يكن له عائلة، أو أنه كان يفضل الوحدة.

في المجلس كانت تعيش شابة فاتنة الجمال، إذ كان الشيخ غيلفوا يداعبها، كأنها ابنته، وكان اسمها "غيلفيون" (Gelfion) الرائعة بيضاء وشقراء، بل إنها تشبه أميرات الحكايات والأساطير.

كانت حياة غيلفيون يلفها غموض مبهم، فالبعض يظن أنها كانت ابنة الملك، وآخرون كانوا يقولون: "إن المسن غيلفوا تبنّاها منذ طفولتها، وآخرون كثيرون كانوا يؤكدون أن أمها كانت ابنة لأحد العمالقة أصدقاء ملك الجبال العظيم".

كانت غيلفيون فاتنة الجمال بشكل مذهل، فصوتها عذب حلو، وفي أعماق عينيها الشفافتين يتوهج ضوء النظرات الغريبة، التي تكاد تشبه نظرات الآلهة.

في ذلك الوقت، كان يحكم الدانمرك الملك "أودين"، (Odin)، وله ابن رائع وشجاع هو الأمير "سكيولد"، (Skiold) الذي وصل فجأة إلى مجلس غيلفوا مجذوباً بسمعة غيلفيون الفاتنة الجمال، ولما رآها سكيولد، صار مثل المسحور من روعة غيلفيون التي وقعت بحبه أيضاً.

---

* De see land.

كان المسن غيلفوا ينتظر اليوم الذي سيفصله عن غيلفيون بالحزن والألم، لكنه أخفى حزنه، وداعب الضفيرتين المذهبتين لشعر الشابة وقال:

"غيلفيون! بنيتي! سأكون محظوظاً وسأموت مطمئناً عندما أراك سعيدة ... فلترع الآلهة زواجك ... أريد الآن أن أقدم لك الأعطيات التي طالما تمنيتها".

– "ملكي غيلفوا – أجابت غيلفيون – سأشعر بحزن عميق عند مفارقتي لك، فأنا أحب بلدي كثيراً ... ولن أطلب منك شيئاً أكثر من سماحك لي أن آخذ حفنة من تراب السويد إلى بلدي الجديد ... فإن شئت أحصل لي على حفنة من التراب يمكن لرجل أن يحرثها في لحظة ومن غير تعب".

– "حسنا يا غيلفيون – قال الملك – فليكن كما تشائين". ونادى على حرّاث قوي ولا يتعب.

اختفت غيلفيون من القصر، فلقد ذهبت إلى الجبل، حيث كانت أمها قد خرجت من هناك، وبانقضاء عدة أيام عادت يرافقها رجل حرّاث، وكان عملاقاً، جاء معه أبناؤه الأربعة، وهم عمالقة أيضاً، كانوا يحملون محراثاً ضخماً يجعل الأرض تهتز، وكي يمكنه بسط المحراث، فلقد أحضر أبناءه الأربعة.

حمل العملاق المحراث وغرس السكة في الأرض، وضغط فوصلت إلى الأعماق. طحنت الصخر الحيّ بينما العمالقة الأربعة الآخرون كانوا يدفعون مقود الحراثة بقوة قادرة على اقتلاع أضخم أشجار البتول.

بدأت الأرض تنفطر بين غيوم من الغبار وكسرات حجارة متطايرة، وظهرت الأثلام عميقة وعميقة مثل الأخاديد، فلقد اشتغل العمالقة دون تعب، أطالوا الأثلام حتى كادت تختفي في الأفق.

وأخيراً بانتهاء اليوم، كانت قطعة من أرض السويد قد قُطعت، وكانت غيلفيون سعيدة بذلك.

– "أيها الملك غيلفوا، أنظر! سآخذ إلى بلدي الجديد هذه الأرض التي رأتها عيناك وداستها أقدامك".

اكتفى الملك المسن بالنظرات – وهو يدمع– إلى فرحة غيلفيون.

وعادت الشابة العذراء إلى ملك الجبال، وفي إحدى الليالي رجعت، يرافقها عددٌ كبيرٌ من العمالقة، الذين رفعوا قطعة الأرض الشاسعة المحروثة

والمهيـّأة، التي تم اقتطاعها، ثم سحبوها حتى البحر، وهناك رفعها العمالقة ومضوا بها كأنها سفينة هائلة تسيـّرها ذراع العذراء الممدودة، وهي تؤشر إلى وجهتهم، وفي المياه المظلمة والعميقة بين الدانمرك والسويد وضع العمالقة قطعة الأرض بقوة، بحيث استقرت صماء وبلا حراك.

هكذا يروون كيف ظهرت جزيرة دي سي لاند الخصبة والرائعة.

وهناك في منطقة "أوبسالا"، حيث تم اقتلاع الجزيرة، فلقد ملأت الأنهار الحفرة الضخمة، وشكلت بحيرة "ميلار" (Melar) المرآة الكبيرة من الماء التي أبقتها غيلفيون، كي تكون قطعة من سماء السويد هناك مقابل الأرض التي أخذتها.

عبقرية الناس البسطاء

كان رجل وزوجته وهما كهلان وفقيران، يعيشان سعيدين ومتحابين ومستعدين دائماً أن يجد كل واحد منهما عمل الآخر عملاً رائعاً، وأن يُظهر الموافقة على أفعاله بوجهٍ فرح.

كانا يسكنان كوخاً بسيطاً، وكان لديهما حصان لا يزال قوياً بعد ... وكانا يعيرانه للجيران في القرية دائماً، إذ كان بعضهم يحتاجه لحراثة أرضه، أو للمساعدة في نقل الأعشاب في موسم الحصاد.

وفي مقابل هذه الأفضال، كان العجوزان يتلقيان بعض قطع اللحم من الذبائح التي تقدم للقديس "سانت مارتين"، وفي الصيف بعض الهدايا من الأسواق التي كانت تقام في القرى المجاورة، وهكذا كانا يمضيان حياتهما سعيدين وفرحين، لا يحسدان ثروات الآخرين.

في يوم من الأيام، أقيم سوق في القرية المجاورة، فقال العجوز لزوجته:

"ما رأيك لو أنني بعت الحصان في السوق؟ فنحن عجوزان، وقد نحتاج يوماً ما إلى بعض الادخار ليساعدنا، وعند ذلك إذا أردنا أن نبيع حصاننا فإنهم لن يدفعوا لنا السعر الحقيقي لما يستحق".

– "يبدوا أنك قد حسبتها جيداً، إنها فكرة عظيمة"، قالت الزوجة وقامت تحضر الثياب الجديدة لزوجها.

امتطى العجوز حصانه، واتجه نحو السوق، ومع أنه لم يبتعد كثيراً عن القرية فلقد تقاطع في الطريق مع شابٍ يسوق بقرة ليست كبيرة وليست سمينة، لكن شعرها كان براقاً والقرون قوية جداً، توقف العجوز لينظر إلى الحيوان الجميل، وفي الوقت نفسه سأل:

"اسمع أيها الشاب! هل تدر هذه البقرة كثيراً من الحليب؟".

– "خمسة لترات تقريباً ... هذا ما يحلو لها كلما حلبتها، ويمكن حلبها مرتين وثلاث مرات في اليوم إذا وضعت لها البرسيم جيداً".

– "البرسيم لن ينقصها فهو عندي– قال العجوز– أريد أن نقوم بمبادلة، أعطيك حصاني وأنت تعطيني البقرة، ستكون زوجتي سعيدة بذلك، إذ يمكنها أن تصنع الجبن والزبدة، ويمكننا أن نتناول مقداراً كبيراً من الحليب".

وافق الشاب، وتابع العجوز طريقه مع البقرة، وهكذا كان يتسلى برؤية البقرة، تأكل العشب الطري من المرج عندما التقى بشاب له عضلات مفتولة، مكنته أن يجعل خنزيراً بديناً وثقيلاً يمشي إلى السوق!

توقف الرجل الطيب معجباً بتدويرة أنف الخنزير، وسأل الشاب:

"كم يمكن أن يزن؟ وكم حلقة من السجق والنقانق يمكن أن يعطي مع حلول موسم الذبح؟"

– "آه!! عن هذا لا يمكننا الحديث، فليس سهلاً إجراء الحسابات، لكن بالتأكيد لن يكون ثانياً مثله في كل السوق، إنه خنزير حصل على ميدالية في إحدى المسابقات".

– "ميدالية؟– قال العجوز– اسمع أيها الفتى! أريد أن أزف السعادة إلى زوجتي، فهي ستكون فخورة لو أنها امتلكت هذا الحيوان صاحب الميدالية في السباق، هل ترغب بمبادلتي به بالبقرة؟".

فكر الشاب للحظة، وبعدها وافق على المبادلة، ثم ابتعد سريعاً مع البقرة قبل أن يندم العجوز.

ولم يمض على ذهابه سوى مائة متر، حتى صار يتوقف كل دقيقة بسبب المشية البطيئة والثقيلة للخنزير، وعندها مرّ بالقرب من شاب يحمل بين ذراعيه وزّة رائعة بريش يلمع، بيضاء وكبيرة مثل البجعة. بقي العجوز الفلاح مندهشاً يفكر في ليالي الشتاء الباردة، ليالي الثلج والأعاصير، فكّر في زوجته وهي ترتجف في الفراش من غير أن يكون هناك لحاف دافئ وناعم، فسأل في الحال:

"اسمع أيها الشاب! هل تقبل بمبادلتي هذه الوزة بهذا الخنزير؟ وستخرج أنت الرابح، وأنا سأكون سعيداً جداً".

ومع أن الشاب استغرب لوقت طويل من هذا الاقتراح، فلقد قرر وتمت المبادلة.

واصل القروي طريقه والوزة الجميلة بين ذراعيه، وقبل أن يصل إلى السوق صادف امرأة تنقل على رأسها سلة، فيها أعشابٌ كثيرة، وبينها يمكن رؤية دجاجة كبيرة سمينة وعريضة لها رجلان قصيرتان وريش نظيف.

كانت شابة شقراء مثل السنابل، رشيقةٌ بخدودٍ مدورةٍ وزهريةٍ ونظرةٍ زرقاء لطيفة، توقف العجوز للتحدث معها، وعندما شاهد الدجاجة التي كانت تحملها، بدأ يسألها إذا كانت بيّاضة جيدة؟ وإذا كانت تأكل كثيراً؟ وكم تأكل؟ فأجابته الفتاة:

"إن هذه الدجاجة جيدة جداً، ولا تخلف عادتها في وضع بيضة كلّ يوم، وبما يخص الأكل، فإنها تكون سعيدة تكتفي بالفتات الذي يسقط عن الطاولة، وبقليل من عشب الحديقة إن وجد".

نسي الرجل الطيب ما كان قد توهّم به من قبل، فبادل الوزة بالدجاجة، وهو يفكر بسعادة زوجته عندما تأخذ البيضات وتخبئها، وتعتني بالصيصان التي ستفقص لأول مرة.

وهكذا وصل إلى السوق، وذهب مباشرة إلى نُـزلٍ صغير يمكنه أن يرتاح فيه، ويشرب كأساً من المنعشات، وبعد قليلٍ جاء ليجلس إلى جانبه قرويٌّ، كان يحضر كيساً كبيراً يحمله على الأكتاف، وعند وصوله، قال العجوز له:

"أهلا أيها الصديق! ماذا تحضر في كيس الجوال هذا الممتلئ والثقيل؟".

– "لا! ليس أكثر من تفاح براوة مما يتساقط من الأشجار، أجاب القروي، وستكون غذاءً جيداً لخنازيرنا".

– "وهل كلّ الكيس ممتلئ بتفاح براوة؟ انظر يا صاحبي، سأقترح عليك شيئاً: إذا أعطيتني كيس التفاح هذا! أعطيك بديلاً عنه هذه الدجاجة الرائعة! عندي رغبة بأن أقدم لزوجتي مفاجأة لطيفة، ففي حقلنا لا يوجد غير شجرة تفاح واحدة، وكلّ ما تعطيه في الموسم هو تفاحة خضراء وعجفاء لا تنضج أبداً، فتأخذ زوجتي تلك التفاحة وتخبئها بعناية في خزانتها، ثم تنظر لها وتقول: "علينا بالاكتفاء والقبول! فتفاحة سيئة في النهاية هي هدية صغيرة".

لهذا، فإني أرغب أن آخذ لها هذا اليوم هديةً كبيرة من التفاح، حتى لو كانت سيئة فإنها ستكون سعيدة جداً".

أتمّ الرجلان التبادل، وصار الكيس تحت تصرف مالكه الجديد.

كان هناك رجلان غنيان من الإنكليز قد شاهدا كل ما دار، وكانا جاهزين للضحك على ذلك الرجل الساذج، فسألاه عن تجارته في السوق.

فروى العجوز لهما كلّ شيء حدث له منذ أن خرج من بيته، وكيف تحول الحصان، وبعد مبادلات كثيرة، وصار كيساً من التفاح البراوة، فلم يستطع الإنكليزيان أن يوقفا ضحكاتهما أمام هذا الرجل البسيط، فقالا له على سبيل المزاح: "سترى عندما ترجع إلى البيت، كيف ستصير فرجة عندما تضربك زوجتك!".

– "تضربني أنا؟! إنكما لا تعرفان زوجتي، أنا واثق إنها ستعتبر كل شيء قمت به عملاً جيداً".

عندما سمع الإنكليزيان ذلك، وكما هو معروف عن الإنكليز أنهم مولعون بالمراهنات والتحقق من الأشياء، قالا:

"هيا لنرى أيها السيد المسكين! نراهنك بكيس صغير من الذهب مقابل كيس التفاح، على أنّ زوجتك ستغضب عندما تحكي لها ما جرى مع الحصان أولاً، وعن كل المبادلات الأخرى لاحقاً".

– "حسناً فلنذهب ونجرب". قال العجوز.

أمر الإنكليزيان أن تجهز الأحصنة ويحضران عربتهما، ثم جلسا فيها جلسة مريحة يرافقهما القروي العجوز دون أن ينسيا كيس الذهب وكيس التفاح، ولم يتأخروا جميعاً بالوصول إلى كوخ الرجل الطيب.

كانت زوجته قد خرجت عند الباب عندما سمعت ضجيجاً عالياً، ولقد استغربت كثيراً لرؤية زوجها برفقة أولئك الأثرياء، لكن في تلك اللحظة بدأت ترحب بهما بأدب جم، ومدت يديها لزوجها وصافحته بحرارة وبسعادة.

– "ها أنا أعود من تجارتي".

– "نعم، إنني أرى أنك تعود سعيداً، فأنت قادرٌ على إدارة الأمور جيداً، ماذا بخصوص الحصان؟ "سألت العجوز!

– "حسنا! في الطريق أبدلته ببقرة".

– "آه شيء جيد! لقد قلت إنك تعرف الكثير، والآن يمكننا أن نتناول حليباً كثيراً، وسيكون عندنا زبدة وجبنة، فالبقرة هي ثروة حقيقية".

– "نعم، لكني بادلت البقرة فيما بعد بخنزيرٍ كبيرٍ نال جائزة في أحد السباقات".

– "فكرة رائعة، فهكذا يكون لدينا لحمٌ مقددٌ وأفخاذٌ مدخنة جيداً وحبالٌ من السجق، لقد تمكنا من امتلاك أشياء جيدة كثيرة".

– "نعم كان بالإمكان أن نمتلك كل هذا لو أنني لم أبادل الخنزير بالوزة ".

– "وهل فعلت ذلك؟ ما أطيبك! كنت تفكر بزوجتك الفقيرة وبلحاف الريش في الشتاء، لتحمي رجليها المتورمتين، كم أشكرك على ذلك! وأيضاً يمكننا أن نقيم حفلة شواءٍ لذيذة إنه...".

– "ستـريْن! الوزة بادلتها فيما بعد بدجاجة بياضة".

– "يبدو لي هذا أفضل! لأن الدجاجة ستعطينا البيض الطازج وكذلك الصيصان، ما أمتع أن أراهم يركضون ويوصوصون حوالي أمهم! أيضاً يمكننا أن ننجـّد لحافاً من الريش، ونأكل مشويات بين الحين والآخر".

–"نعم! لكن الدجاجة أبدلتها بكيس براوة التفاح!".

عندها بدأت المرأة تضحك بأعلى رغبة في الضحك، ثم قالت:

– "يا للمصادفة يا رجل! لا يمكنك أن تخمن كم أسعدتني! تصور أنني اليوم أردت تحضير طبخة لذيذة أقدمها لك عندما تعود من السوق، فذهبت إلى الجارة لأطلب رأسيّ بصل اعتزتهما، هل تعرف ماذا أجابتني؟ ولأنها بخيلة جداً ومرابية، فقد قالت لي بصوتها المفتعل: كم أنا متأسفة لا أمتلك في الحقل ولا حتى تفاحة مخمجة! فانظر الآن! يمكنني أن أقدم لها أكبر كيس من التفاح البراوة ... فلترى كم كنت متيقنة وعندي حدس! إنني سعيدة ... وليتك تسمح لي بقبلة رغم أنها أمام هذين السيدين".

وألقت بذراعيها على رقبة زوجها العجوز وقبّلته بسعادة، قبلتين أحدثتا صوتاً على خديه.

لم يتحرك الإنكليزيان من ذهولهما وقال أحدهما للأخر:

– "أرأيت هذه الأشياء التي تفرح النفس؟! كل ما يفعله الزوج بالنسبة لزوجته هو دائماً عملٌ جيدٌ ومحكمُ الأداء. حقاً إن زوجةً مثل هذه تساوي كيساً من الذهب، حقاً".

دفعا ما كان قد راهنا عليه وودعا القرويين بإشارات الفرح والسعادة.

الجزر البريطانية

حكايتان قديمتان من العصور الوسطى، من زمن كانت فيه الحياة في الجزر البريطانية حياة فلاحية في الغابات الكبيرة، حيث أدغال البلوطً سَتـرت المغامرين، الذين كانوا يعشقون الحرية، وغطّـتهم بأيكها الذي شهد المآثر الفروسية.

حكاية: وليم دي كلاوديزلي*

بالقرب من مدينة "كارلايزل" (Carlisle) التي تحيطها الأسوار، كان في أزمان بعيدة غابة كبيرة وكثيفة، حيث كان الملك يخبئ أيائله، وكذلك فـزّاعات لتخيف الحيوانات واللصوص.

كان خدم الملك يطاردون بقسوة جماعة من الصيادين الجريئين، الذين كانوا يعيشون دائماً في الغابة كعشاق للحرية وأعداء للقمع الذي يقوم به الأسياد.

والشجعان الثلاثة هم: "آدم بيل"، و"كلايم"، و"وليم دي كلاوديزلي"، الذين كانوا يقودون مجموعة الصيادين، وهم يشعرون بالسعادة، وينعمون بروعة الحرية في الغابة.

كان "وليم" صاحب العائلة الوحيد فيهم، التي كانت مكونة من: زوجته أليسيا وأبنائه الثلاثة الذين يعيشون في أحد أكواخ مدينة "كارليزل".

أحسّ وليم الشجاع بالرغبة في رؤية زوجته وأبنائه بعد غياب طويل، فأعلم أصدقاءه بذلك كي ينتشروا في الطريق تحسباً لأي شيء حتى وصوله إلى كوخه، ومن ثم يعودون في الصباح إلى الغابة، علماً أنهم بذلك سيتعرضون لخطر وقوعهم في الأسر من قبل عسس الشريف "العمدة" وجنوده.

١٧٥

١٧٤

دخل وليم إلى المدينة عندما كان الظلام قد عـمّ تماماً، ووصل إلى بيته ثم نادى عند الباب بصوت يكاد لا يسمع، ففتحت زوجته أليسيا الباب، وهي متفاجئة ومرعوبة من رجال الشريف الذين كانوا يراقبون البيت بشكل متواصل.

نظر الأولاد بدهشة كبيرة إلى والدهم، وفي تلك الليلة امتلأ البيت بالسعادة والفرح.

لكن أحدهم وشى بوجود الصياد، ولم تتأخر الوشاية بالوصول إلى

* William de Cloudlessly.

الشريف، وقبل بزوغ الفجر كانت القرية تقف على أقدامها مرغمة على معاونة الشريف والقاضي في القبض على المغامر.

كان جنود الملك يحقدون على الصياد، بينما كان رجال القرية معجبين به ويتعاطفون معه.

سمع وليم خطوات المسلحين، فصعد مع زوجته وأبنائه بسرعة إلى الطابق العلوي، ومن خلال نافذة عريضة شاهد الجنود، وهم يحاصرون البيت، كان الصباح قد بدأ يتفتح بصفاء، لكنه امتلأ بالأصوات.

لم يشعر وليم بالخوف، كان قد أحضر معه حفنة من السهام استعداداً للمقاومة، ومن النافذة الواسعة شاهد القاضي والشريف وكلاهما أعداؤه.

صوّب قوسه، ثم انطلق السهم بقوة، وهو يصفر، فحطّ على صدر القاضي المحمي بدرع من مشبك الحديد.

– "استسلم يا وليم دي كلاوديزلي!". كانوا يصرخون عليه من الخارج.

فردت عليهم أليسيا الشجاعة بفخر: "زوجي لا يستسلم! زوجي ليس جباناً مثلكم!".

كانت سهام كلاوديزلي صائبة، وقد جرحت بعض الذين يحاصرونه، لكن الشريف، الذي يحتقن بالغضب، أمر بإضرام النار بالبيت دون شفقة أو رحمة للمرأة وللأولاد.

وبدأ البيت يحترق، ووصلت ألسنة اللهب إلى الغرفة التي كان الأطفال فيها يبكون من شدة الخوف.

توقف وليم عن إطلاق السهام، وأخذ عدة شراشف من القماش المتين، وربطها مثل الحبل، بينما أليسيا وأولاده تمكنوا من النزول عبر النافذة، وعندما تأكد وليم أنهم نجوا صاح:

"أيها الشريف! لقد أرعبت زوجتي وأطفالي، وجـّه انتقامك نحوي، لكن حذار أن تمسهم بأقل الأذى".

واستمر من بين ألسنة اللهب يطلق السهام حتى آخر سهم عنده، فلم تعد المقاومة ممكنة وقد صار البيت على شفا أن ينهار.

ومثل وحشٍ كاسرٍ قفز وليم من النافذة فأطبق الجنود عليه، وشدّوا وثاقه بقوة، ثم سجنوه في قفص مغلق.

قال الشريف له: "وليم كلاوديزلي! غداً في ساعات الصباح الأولى ستكون معلـّقاً في الساحة العامة، ولن تـُفتح أبوابُ المدينة إلا بعد موتك، لا تنتظر الآن من رفاقك أن يأتوا ليخلصوك!".

في اليوم الثاني عند الشفق كان سكان المدينة في الساحة العامة، والجندي الذي كان يحرس أبواب المدينة أمر أن لا تـُفتح إلا بأوامر عليا.

أحد الرعيان، الذي لم يتمكن من إخراج قطيعه للرعي، سأل أحد سكان القرية عن اسم المتهم، فقال الرجل: "إنه النبيل والشجاع وليم الذي لم يفعل أيّ شيء يؤذي أكثر من الصيد والعيش في غابات الملك، إن إعدامه بسبب ذلك وباسم السماء لهو جورٌ كبير!".

كان الراعي يعرف وليم الذي تصادق معه في الغابة ... فكر للحظة ... وبعدها تسلل من جدار السور وقفز إلى الحقل دون أن يراه أحد. ركض بكل قوته إلى أن وصل إلى مخيم الصيادين، وأخبرهم عما جرى.

أخذ آدم بيل وكلايم أسلحتهما، وركضا باتجاه أبواب المدينة. عندها طرأت فكرة جيدة لكلايم: "فلنقدم أنفسنا أننا مبعوثون من الملك، وبهذا يفتحون لنا الأبواب".

زوّر آدم بيل خط الملك وختمه في صحيفة لفها لاحقاً، فبدت أنها أمرٌ رسمي.

طرق الاثنان بوابة المدينة بقوة، وأعلنا أنهما مبعوثان يحضران أمراً طارئاً من القصر إلى القاضي.

فـُتحت البوابات، وركع الحراس عندما رأوا الختم الحقيقي، لكن آدم وكلايم ألقيا بنفسيهما على الحارس، وربطاه بقوة، ثم حبساه في زنزانة قريبة، وبعد ذلك ركضا إلى الساحة العامة.

كانت جموع الناس تتابع التحضيرات لتنفيذ حكم الإعدام. وكان وليم كلاوديزلي هناك وسط الساحة موثقاً بقوة بالحبال، لكنه لحظ أصدقاءه الأوفياء.

صوّب الاثنان سهام قوسيهما على القاضي والشريف اللذين كانا بارزين من فوق حصانيهما من بين الحشود.

اهتز القوسان، وصفرت السهام، فسقط القاضي والشريف على الأرض بإصابات قاتلة.

سادت لحظة ذهول، وتبعها فوضى، استغلها رماة السهام للاقتراب من رفيقهم فقطعا الحبال التي كانت تشد وثاقه، وعندها تسلح وليم بفأس أحد الجنود.

بدأ الصيادون الثلاثة يقاومون القوات التي كانت هناك، كانوا يقاتلون وظهر كل منهم محميّ بظهر الآخر، بينما يعطون وجوههم للمهاجمين، كان الصيادون الشجعان يطلقون سهامهم وهم يتراجعون خطوة خطوة نحو أبواب المدينة.

نفدت السهام، ولمعت السيوف، وخارت قوى المتمردين الثلاثة، وبجهد أخير فازوا بالخروج، وأغلقوا البوابة الكبيرة بالمفتاح الذي استولوا عليه من الحارس، وانطلقوا بسرعة نحو الملجأ الآمن في الغابات التي عاشوا فيها دائماً وناضلوا وكافحوا للاحتفاظ بالحرية.

مشى الرفاق الثلاثة تحت ظلال الأشجار الضخمة، يتندرون على أحداث مغامرتهم الكبيرة، فسمعوا همهمات وأصوات استغاثة، تخرج من السور الكثيف، فباعدوا الأغصان، واقتربوا من المكان الذي كانت الشكوى تسمع منه، فعثروا على أليسيا الشجاعة هناك، وقد هربت إلى الغابة ومعها أطفالها الثلاثة.

كانت منتشية من السعادة، أحضر آدم وكلايم صيداً وفيراً، وفي المكان نفسه جهّزوا الغذاء الذي سيسترد لهم القوة التي بذلوها.

وفي وقت الراحة وهم يتسامرون حول النار، قال وليم: "أظن أنه يجب علينا أن نذهب في الحال إلى لندن، لنطلب الصفح من الملك قبل أن تصله الأخبار من كارليزلي، فعندي ثقة بأنه سيستمع لنا، لكنني سأترك هنا زوجتي أليسيا واثنين من أبنائي في بستان قريب، وسآخذ معي ابني الكبير، حتى يتمكن من نقل أخبار حظنا إلى أمه".

استعدّ رماة الأقواس الثلاثة، وكذلك الطفل الرائع ابن السبع سنوات من العمر، وانطلقوا باتجاه لندن. وبعد ثلاث دوريات متعبة من المسير، وصلوا إلى القصر، وأعلنوا أنهم صيادون في غابات الملك وقد جاءوا يطلبون الغفران.

استقبلهم الملك بشكل سيئ، وعندما علم بأسمائهم أمر غاضباً أن يودعوا

السجن، كي يدفعوا بحياتهم ثمن إساءاتهم، لكن نبل الصيادين ولطافتهم جعلت الملكة تتعاطف معهم، وتطلب من الملك أن يعفو عن الثلاثة.

فوافق الملك على العفو بسبب حبه لزوجته، وفي تلك اللحظة وصل أحدهم يحمل رسالة يشرح فيها ما حدث في مدينة كارليزلي، وما فعله الرجال الثلاثة أمام المدينة كلها.

وقف الملك مشدوهاً وحانقاً أمام تلك الواقعة المستحيلة، وأمر رجاله من رماة السهام أن يخرجوا إلى حقل الرماية، ليمتحنوا مهارة المغامرين.

امتلأ الحقل الشاسع بالناس والجنود ينظرون بازدراء إلى الصيادين الثلاثة.

قام رماة الرماح التابعون للملك والرفاق الثلاثة بإطلاق سهامهم على دريئات بيضاء، فقال وليم دي كلاوديزلي: "يبدو هذا مثل لعبة أطفال، فأنا لا أسمّي أبداً رامي سهم جيد للذي يفرح بالتسديد على هذه الأهداف الكبيرة جداً، التيً تشبه الدروع في المعارك، فأيّاً كان يمكنه القيام بذلك.

قال الملك: "فلتختر الدريئة التي تحب، وأرني ما أنت قادر على فعله".

قال وليم بصوت جهوري: "من أجل شرف رماة السهام سأقوم بما لا يمكن لأحد القيام به، فهذا الطفل الموجود هنا هو ابني، وعن مسافة أربعمائة قدم سأسدد سهمي على تفاحة تضعها على رأسه".

قال الملك: "إن هذا لمغامرة كبيرة وخطرة، وإن لم تحققها فسوف تدفع الثمن حياتك أنت وحياة رفاقك". فاستعد وليم لتنفيذ كلمته.

كان الطفل بعينين مفتوحتين جاحظتين، وقد تم ربطه إلى جذع شجرة، ثابتاً في الأرض، ووضعوا تفاحة على رأسه الأشقر الجميل. وابتعد كلاوديزلي مسافة أربعمائة قدم، ووضع في قوسه أطول سهامه وأكثرها استقامة.

كانت حشود الناس تنظر إليه بأسى، والنساء تبكي من شدة تأثرهن.

استدار كلاوديزلي إلى الناس، وقال: "إياكم أن يتحرك أحدكم فيعكر صفائي .. أدعوا لي".

ووسط الصمت ثبت الرامي قدميه ثم سدد فصفَّر السهم، وسقطت التفاحة مشطورة إلى نصفين متساويين.

انفجرت الحشود بصرخات كبيرة تعبر عن فرحها، وجميعهم يصفقون تملؤهم السعادة.

اتخذ الملك الصمت، وبعدها قال: "أمنحك العفو يا وليم دي كلاوديزلي، ومن الآن أمنحك لقب كبير حراس غاباتي إن كنت لا تزال تفضل العيش مع رفاقك تحت حمايتي.

لكن الأصدقاء الشجعان اختاروا أن يواصلوا حياتهم، حياة الحرية والمغامرات في غابات كثيفة من أشجار البلوط المعمرة منذ مئات السنين.

الفارس جيريان *

تتبعها إحدى سيدات مجلسها، كانت زوجة الملك "آرثر" تتجول في مجنبات القلعة. وهما تمتطيان الخيل عبرتا الجسر المقام على النهر، وابتعدتا في الحقل الأخضر بين المروج والأشجار.

توقفت الملكة لسماعها وقع حوافر حصان كان يأتي في الاتجاه نفسه. وبعد فترة قصيرة ظهر أمامها فارس شاب من النبلاء، يرتدي معطف عباءة واسعة ومفتوحة، وعلى جانبه سيف له قبضة من ذهب.

– "أهلاً وسهلاً أيها الفارس" – قالت الأميرة له وتابعت:

"لم أكن أتوقع صحبة سعيدة كهذه، تعال فاليوم سنصل إلى مدخل الغابة".

وقبل الوصول توقفوا عندما شاهدوا بين الأشجار رجلاً بديناً يرافقه قزمٌ، يأتيان على حصانيهما بخطوات بطيئة ومعهما امرأة كانت تمشي بثوبها الداخلي، المخرّم والمصنوع من الذهب إلى جانب فارس له طابع مستبد ومدجج بسلاح ثقيل يلمع.

أرسلت الأميرة وصيفتها سيدة الشرف لتسأل القزم عن اسم سيده، وعندما سألته بلطف وأدب رد القزم:

"لن أقول لك شيئاً، فأنت لست أهلاً للاقتراب من سيدي".

أرادت السيدة أن تتجه نحو الفارس المجهول الهوية، لكن القزم تدخل وضربها بالسوط على وجهها.

استعد جيريان ليقتص من تلك الفعلة الدنيئة، ووضع يده على سيفه، لكنه توقف، لأنه اعتبر من غير المشرف أن ينتقم من ذلك الرجل الصغير عديم القيمة، عندها طلب الإذن من الملكة ليتبع أولئك المجهولين حتى يجد الفرصة، ليرتدي ثياب الحرب ويعاقب الفارس الفظ.

* Gerian.

– "اذهب – قالت الملكة – وسننتظر عودتك في المجلس بفارغ الصبر".

تابع جيريان أولئك المجهولين، وبعد أن اجتازوا نهر "اليوسك" (usk) وصلوا إلى مدينة، عند مدخلها كانت تقوم قلعة جبارة، مرّ بها الفارس المدجج مع سيدته وقزمه، فنهض الناس يؤدون طقوس الاستقبال ويقدمون التحيات.

كانت البيوت والنوافذ مزينة بدروع ملونة ورايات وردية، وفي كل محددة كان هناك رجال منهمكون في صقل السيوف وتدبيب الرماح وتلميع الخوذات والدروع.

دخل القزم والسيدة والفارس إلى القلعة وسط صفين من المحاربين كانوا قد خرجوا واصطفوا عندما شاهدوا الفارس وجماعته يصلون.

بقي جيريانٍ يفكر دون أن يعرف إلى أين يتجه، لكنه رأى قلعة قديمة مهدمة ونائية شيئاً ما، فمشى إلى هناك يطلب مأوى لتلك الليلة.

وعندما أحسوا بقدومه خرج لاستقباله رجلٌ مسنٌ، وله لحية وشعر أبيض، تبدو عليه علامات النبل على الرغم من ثيابه البالية، والذي رحّب بالفارس بعبارات كيّسة، وقدّم له ضيافة متواضعة.

نزل جيريان عن حصانه في الحديقة المحاطة بأنقاض آثار، ظنّ أنها لقلعة كانت هنا في أزمان أخرى، مع أنه يرى بعض الأسوار والأقواس قد تشققت، وبعض الأبراج والمنارات مدمرة، وبعض سقوف من حجر بقيت واقفة، وكذلك بعض الغرف التي تكوّن هذا المأوى المسكين.

قدّمه المسن إلى زوجته وابنته "إيناد" التي وإن كانت بملابس بسيطة، فقد بدت لجيريان أجمل النساء وأكثرهن روعة.

قال المسن لإيناد: "اعتني بحصان ضيفنا، واجعلي منزلنا الفقير مضيفاً طيباً للفارس". فقامت الشابة العذراء بترتيب كلّ شيء بطيبة نفس وثقة.

حضّرت العشاء، وجلسوا إلى المائدة، وبقيت الشابة إيناد تقدم الخدمات، وبعد الأكل شرح جيريان عن احترافه كفارس وعن قربه من الملك آرثر، وبعدها أبدى اهتمامه لمعرفة لمن تعود تلك القلعة المبادة؟

قال المسن: "هذه! إنها آخر ممتلكاتي الوحيدة المتبقية! لقد أعلن حفيدي الجاحد الحرب عليّ، وجردّني من كل أملاكي! أقدم لك نفسي: أنا "الكونت ينيوال"، أراني الآن وبسبب غدره قد انحدرت إلى هذا الفقر".

– "سيدي – سأل جيريان– من هو الفارس الذي وصل إلى القلعة مع زوجته

والقزم؟ وما الأمر الذي يتم تحضيره في هذه المدينة المزدانة جداً؟".

– "إنه حفيدي الكونت الخائن، هو من رأيته يدخل القلعة، لقد نظم حفل مبارزة سيقام غداً في السهل الكبير الذي نراه من هنا. إنه سيغرس في وسط الحقل رمحاً يكون في طرفه صقر من الذهب كجائزة للمنتصر. والجميع في المدينة يحضرون السلاح والخيول، ولن يأخذ مكانته في تلك المنازلة من لا يذهب بصحبة زوجته! إن هذا الشرير الملعون الذي رأيته يصل اليوم إلى المدينة، كان قد اغتصب للمرة الثانية الصقر الذهبي، وإذا استطاع أن ينتصر غداً من جديد فانه سيغتصب لقب الفارس الصقر".

– "سيدي! – قال جيريان: عليّ أن انتقم لذلك الجور الذي سببه حفيدك لي وللملكة. وهكذا أرجوك أن تعيرني درعاً، وأن تسمح لي أن أدخل المنازلة، على شرف ابنتك إيناد، التي إن خرجت منتصراً فسأبقى أحبها طالما حييت".

–"إنك تقدم لي سعادة عارمة، وغداً عند شروق الشمس سيكون لك درعٌ جاهزٌ وحصانك، وأنا وابنتي سنرافقك".

وعند الصباح استعد الفارس جيريان، فارتدى الحديد، وسنّ سيفه، ثم امتطى الحصان، وتسربل بالدرع، وحمل الرمح ليتجه إلى المنازلة.

عندما وصلوا إلى الحقل كان فارس القلعة متأكداً من انتصاره، ويؤشر لزوجته أن تأخذ الصقر الذهبي جائزة المنتصر، لكن في تلك اللحظة ظهر الفارس جيريان وقال:

"الصقر الذهبي ليس لك، ولا يمت إليكم بصلة. أدعوك لمنازلتي أيها الفارس الخائن، إنني سأهزمك، وعليك أن تعلن أن زوجتي هي السيدة الأكثر جمالاً وروعة".

وبعد أن قال جيريان ذلك اتجه على وقع حوافر خيله نحو أطراف الحقل، ليكون مستعداً للقتال.

كان الفارس الفظ غاضباً جداً. وانطلق الغريمان بأقصى سرعة حصانيهما كلٌ في اتجاه الآخر، ولثلاث مرات تكسرت الرماح على الدروع، ولثلاث مرات قام الكونت المسن ينيوال والقزم المتعجرف بتقديم السلاح للخصمين، وأخيراً قال الرجل المسن لجيريان:

"هذا الرمح الذي أخذته في شبابي عندما سلّحوني لأكون فارساً، ولقد قاوم الرمح في الكثير من المعارك ولم يتكسّر".

كان جيريان مصمماً على الفوز، فرمى خصمه بقوة، ومزّق درعه فيها، وأسقط الخائن على الأرض.

ترجّل جيريان عن خيله، وبدأ المبارزة حيث راحت السيوف تقعقع، واقترب المسن إلى المسافة التي أمكنه الاقتراب إليها، وقال:

"يا فارس الملك آرثر، تذكر الإهانة التي سببها لك".

عندها، استجمع جيريان كل طاقته وقوته وركّزها في المعركة، وبضربة رهيبة قصم خوذة خصمه الذي سقط مهزوماً على الأرض، وراح يطلب الرأفة.

فقال جيريان له: "أسامحك بحياتك تحت شرط واحد أن تمثل أمام الملكة، وأن تطلب منها الغفران عن إساءتك، وعندها سينطق فرسان المجلس بالعقاب الذي تستحق".

قام جميع رجال الخائن المحاربين، وجميع فرسان المدينة بتقديم التحية إلى الفارس المنتصر، الذي رجع مع المسن وعائلته إلى القلعة المهدمة، وهم مزدانون بالورود وبالمشاعل المنيرة.

حضر الكونت المهزوم إلى هناك، ليتفرغ جيريان له وقال له:

"سأعود غداً إلى البلد الذي أتيت منه، وسأذهب مصطحباً إيناد التي ستصبح زوجة لي، لكن قبل أي شيء عليك بإعادة كل شيء اغتصبته من الكونت ينيوال".

وهذا ما كان قبل انطلاق إيناد وجيريان نحو مجلس الملك آرثر.

الكتاب الخامس:

الطفل دان والوحش

إفريقـــيا

بلاد النيجر

في شمال غرب إفريقيا، وبين حدود الصحراء وغابات النيجر، وفي قرى من أكواخ مدورة، هناك يعيش فلاحون "الفلوبيس"[1] (Flubes)، الذين يتقاسمون السهل الكبير مع قبائل متنقلة من طوارق وعرب وأفارقة.

في كل المنطقة تلك، تم اكتشاف آثار مدن، وأنقاض وأسوار وقلاع كعلامات عن حضارة قديمة ومزدهرة، قد تقوضت واختفت.

شعب الفلوبيس المكون من رجال لهم سحنة قمحية وذكاء حاد متخصص بالرعي وزراعة الحقول وأعمال أخرى، ويمثل تأكيداً كبيراً لأولئك الذين في أزمان أخرى، صنعوا واحدة من أهم الحضارات الإفريقية والمثيرة للفضول.

وإلى جانب الآثار والأنقاض، تم اكتشاف والتقاط أساطير وحكايات قيّمة عن الحب والفروسية، على الرغم من أن شعب تلك المنطقة، كباقي شعوب إفريقيا، قد عانى من استعمار القوى الغاشمة.

[1] تطلق على الشعوب التي تسكن في القسم الغربي من الصحراء الإفريقية (المترجم).

سامبا غانا *

في مدينة "واغنا" (Wagna) كانت الملكة "أناليا- تو-باري" (Analia Tu-bari)، وكان والدها هو أمير واغنا وسيد قرى كثيرة. وفي إحدى المرات خاض حرباً مع أمير عدو انهزم فيها والد أناليا، فتم تجريده من ممتلكاته، وكان عليه أن يسلّم إحدى قراه، لكن كبرياءه لم يسمح له بتحمل ذلك، فمات كمداً وغماً، وورثت أناليا كلّ المملكة عن أبيها.

حضرت أعدادٌ كبيرة من الفرسان إلى مدينة "واغنا"، يطلبون يدها للزواج، لكن أناليا كانت تحزم بطلبها، ليس فقط أن يستردوا القرية الضائعة، إنما ثمانين مدينة أخرى! لكن لا أحد من الفرسان تجرأ على هذا المهر الحربي.

ومرّت السنوات، وفقدت أناليا كل سعادتها، ومع أنها كانت تزداد جمالاً في كل يوم، فإنها كانت تزداد حزناً.

في بلدٍ مجاورٍ كان لأميرها ولدٌ يدعى "سامبا غانا"، وعندما كبر هجر مدينة أبيه حسب عادات البلد، وخرج ليحتل أراضي ومدناً أخرى، كي يقيم عليها مملكته.

كان سامبا غانا شاباً مبتهجاً دائماً، وقد خرج سعيداً من مدينة والده يرافقه اثنان مدرعان.

١٨٩

١٨٨ أعلن سامبا الحرب على أمير مدينة وتحدّاه إلى منازلة فتصارع الاثنان، والمدينة كلها تشاهدهم، وأخيراً انتصر سامبا غانا، فطلب الأمير المهزوم منه أن يعفو عن حياته، ويقدم له مدينته. فبدأ سامبا يضحك ويقول:

"ابق مع مدينتك فهي لا تهمني".

تابع سامبا طريقه، وهزم الأمراء واحداً تلو الأخر، ودائماً كان يعيد كلّ ما يحصل عليه بفوزه إلى كل أميرٍ مهزوم، ويقول له:

---

* Samba Gana.

"ابقَ مع مدينتك فمدينتك لا تهمني".

تمكن سامبا غانا من هزيمة كل أمراء البلاد، ومع ذلك لم يكن يملك أرضاً ولا مدينة، لأنه بعد كل انتصاراته كان يعيد كلَّ شيءٍ، ويمضي ضاحكاً مبتهجاً وحالماً.

وفي يوم كان يرتاح فيه مع مرافقه عند ضفاف نهر النيجر، غنّى المرافق الأغنية الرائعة لـ "أناليا- تو- باري"، والمليئة بالحزن وعزلة الأميرة.

قال المرافق: "الرجل الذي سيحظى بأناليا وسيجعلها تضحك هو فقط ذاك الفارس الذي سيسترد ثمانين مدينة".

عندما سمع سامبا غانا ذلك، وثب بقفزة سريعة، وصاح: "هيا يا أصحاب العضلات اسرجوا الخيول! هيا بنا إلى بلاد أناليا- تو- باري".

انطلق سامبا بمسيرة مع المرافقين المدرعين، واستمروا أياماً ولياليَ يمتطون الجياد، حتى وصلوا إلى مدينة "أناليا – تو – باري"، فرأى سامبا غانا امرأةً رائعةَ الجمال وشديدة الحزن. فقال لها: "أناليا أنا سأسترد المدن الثمانين". وقرر أن ينطلق في مسيرة ثانية.

قال لمرافقه: "ابق هنا مع أناليا، غنّ لها وروّحها عن نفسها، اجعلها تضحك". فبقي المرافق في مدينة "أناليا – تو – باري"، وكلّ يوم صار يغني لأناليا أغنيات عن أبطال بلادها، وعن مدنها، وعن أفاعي النهرً التي تجعل مستوى المياه يرتفع، فتجعل الناس يخزنون الأرز لسبع سنوات ويبقون جائعين لسبع سنين أخرى.

وكانت أناليا تستمع له، بينما سامبا غانا كان يقطع الأمصار، ويحارب الأمراء واحداً تلو الآخر. فأخضع ثمانين أميراً، ولكلّ مهزومٍ منهم كان يقول:

"عليك الحضور أمام أناليا – تو- باري، وأن تقول لها: إن مدينتك صارت لها".

ذهب الأمراء الثمانون يرافقهم أعداد كبيرة من المحاربين إلى مدينة واغنا، وسكنوا هناك، فأخذت مدينة أناليا تتسع وتتسع، إلى أن أصبحت ملكة على الأمراء والمحاربين في كل الأمصار.

قال سامبا غانا لها: "كل شيء تمنيته قد أصبح ملكاً لك".

فقالت أناليا: "لقد وفّيت بوعدك، سأكون زوجتك".

فقال سامبا غانا: "لماذا أنت حزينة؟ إنني لن أتزوج منك إلا عندما تعود البسمة إليك، وأراك تضحكين".

قالت أناليا: "لقد كان عار والدي المهزوم يبعث الحزن فيّ، والآن لا أقدر على الضحك، لأنني لم أجد أحداً يقدر على إتمام رغبتي".

قال سامبا غانا: "أشيري عليّ ماذا عليّ أن أفعل؟".

قالت: "اقتل الأفعى التي في النهر! فهي تأخذ الخيرات لسنة كاملة فيكون هناك مجاعة لسنة كاملة، وأنا سأكون سعيدة لقتلها".

قال سامبا: "لم يجرؤ أحدٌ على ذلك، لكنني سأقوم به".

اتجه سامبا غانا مع رجاله الثلاثة نحو النهر، وبحث عن الأفعى واستمر في المسير والبحث، فوصل إلى مدينة فلم يعثر على الأفعى، واستمر يمشي مع النهر ويبحث عن الأفعى، فوصل إلى مدينة أخرى ولم يجدها! واستمر في البحث إلى أن عثر عليها أخيراً، وبدأ يتصارع معها! وفي النهاية انهزمت الأفعى وكذلك سامبا غانا!

كان تيار النهر يأخذهما من جهة إلى جهة، ويمر بين الجبال، ثم يفتح أراضي ويدخل فيها.

استمر الصراع ثماني سنوات بين سامبا والأفعى، وفي العام الثامن هزمها. وخلال هذا الوقت كسر سامبا ثمانمائة رمح وثمانين سيفاً، وأخذ أحد الرماح المليئة بالدم فأعطاه إلى مرافقه قائلاً:

"خذها إلى أناليا، وقل لها: إنني هزمت الأفعى، وانظر إليها جيداً لتراها إن كانت ستضحك".

عاد المرافق وسلّم هدية سامبا غانا، وعندما سمع سامبا كلام أناليا قال: هذا عظيم جداً.

أخذ سامبا السيف المبلل بالدم وغرسه في صدره وضحك مرة ثانية قبل أن يسقط ميتاً.

أخذ المرافق السيف المدمي، وامتطى الخيل، ومضى باتجاه أناليا، وعند الوصول قال لها:

"هذا سيف سامبا غانا، والدم الذي عليه هو دم الأفعى ودم سامبا الذي ضحك لآخر مرة".

جمعت أناليا كلّ الأمراء والمحاربين في المدينة، وامتطت خيلها، فامتطى الجميع خيولهم، وتبعوها نحو البلد الذي مات فيه سامبا غانا.

وصلت أناليا إلى المكان الذي كانت فيه جثة سامبا غانا وقالت:

"لقد كان بطلاً عظيماً، ليس له مثيل عند من سبقوه، أقيموا له ضريحاً، وليكن الأعلى بين أضرحة الملوك والأمراء والأبطال".

وبدأ العمل لذلك، فحفر الأرض رجالٌ حاصل عددهم هو ثمانية أضعاف الرقم ثمانمائة. والعدد نفسه من الرجال قاموا ببناء الضريح، وكذلك الرقم من الرجال قاموا بتجميع التراب فوق الضريح، ورصرصوها ثم أحرقوها فظهر هرمٌ كبير.

عند كل غروب كانت أناليا وأمراؤها ورجالها المحاربون يصعدون إلى قمة الهرم، وكل مساء كان المرافق يغني أغنية البطل، وعند كل صباح، كلّما كانت أناليا تستيقظ، كانت تقول:

"الهرم ليس عالياً بما يكفي، يجب رفعه كي تُرى منه كلُّ مملكة واغنا".

ثمانية أضعاف العدد ثمانمائة من الرجال حفروا الأرض ورصرصوها ثم حرقوها. وطوال ثمانية أعوام كان الهرم يكبر ويطول ويرتفع، ومع نهاية العام الثامن نظر المرافق بعينيه الدائريتين، وقال: "يا أناليا – تو – باري، اليوم يمكنك رؤية واغنا".

نظرت أناليا نحو الغرب وقالت: "ها أنا أرى "واغنا" وضريح سامبا غانا هو العظمة التي يستحقها اسمه". وضحكت أناليا! نعم ضحكت كثيراً! وقالت:

"الآن انفصلوا أيها الأمراء، تفرقوا في أنحاء الأرض، وكونوا أبطالاً مثل سامبا غانا".

وضحكت أناليا مرة ثانية قبل أن تسقط ميتة، ويدفنوها في سرداب الهرم إلى جانب سامبا غانا.

الأصيل ابن الأصول

خلال زمن طويل، كانت عائلة "الآردو" هي التي تحكم بلاد الفلوبيس.[1] وكان "غوربو – ديكي" الشاب القوي تنحدر سلالته من تلك العائلة النبيلة، ولأنه لم يكن الابن البكر، لم تكن له مدينة يحكمها، لهذا كان يمضي هائماً في بلاد الـ"بام مانا" (Bammana)، وبمزاجه المعكر ينشر المعاناة بين سكانها، فجعلهم يخشون بطشه بشدة لأنه كان قاسياً وعنيفاً.

كان البامانيون المرعوبون يستعجلون تدبير الأمر، فنادوا على "ألآل" المدرع مرافق غوربو – ديكي وقالوا له:

"أنت الوحيد الذي يمكنه إقناع البلدة، ويا ليتك تقدر أن تجعل غوربو – ديكي يرحل عن البلاد! فسوف نعطيك كمية جيدة من الذهب".

وبعد انقضاء عدة أسابيع قال" ألآل" لغوربو ديكي: اسمع! البام مانا لم يفعلوا شيئاً سيئاً لك حتى تعاملهم بهذه الطريقة، ولو كنت مكانك، لذهبت إلى عائلة الفلوبيس ليعطوني مملكة".

– "لديك حق – قال غوربو – لكن أية مدينة تريدني أن اختارها؟". فسأله المدرّع: "ما هو رأيك لو أنك تذهب إلى بلاد "ساريام" التي يحكمها حمّادي آردو؟".

قال غوربو: "يبدو لي حسناً، هيا بنا إلى هناك".

ووصلا قريباً من ساريام. وفي قرية في الضواحي توقفوا عند بيت فلاح حرّاث.

قال غوربو لحاملِ الدرع: "ابق أنت هنا مؤقتاً، وأنا أريد أن أرى المدينة وحدي أولاً".

خلع الملابس الفارهة، وطلب من الفلاح ملابس عمل قديمة، ارتداها وتوجه نحو المدينة، وأول شيء فعله تحدث مع حداد وقال له:

[1] Flubes: الفلوبيس تطلق على سكان القسم الغربي من الصحراء الإفريقية (المترجم).

"أنا من الفلوبيس وأحوالي سيئة الآن، ومقابل القليل من الطعام أنا مستعد لمعاونتك في العمل".

قال الحداد: "لم لا! هل تريد أن تعمل بالكير؟".

قال غوربو: "سأقوم بذلك بامتنان كبير".

وبينما هو يشتغل سأل الحداد: "من هو حاكم هذه المدينة؟".

– "هنا يحكم حمّادي من عائلة آردو". أجاب الحداد.

– "وهل عند حمّادي الآردو خيول؟".

– "نعم! – قال الحداد – لديه الكثير من الخيول، إنه ثري جداً ولديه أيضاً ثلاث بنات. اثنتان متزوجتان من اثنين من الفلوبيس، وهما فارسان شجاعان، أمّا البنت الصغرى واسمها "كودي آردو"، فهي أجمل فتيات الفلوبيس في البلاد، فهي تضع في إصبعها البنصر خاتماً من الفضة، وتقول إنها لن تتزوج إلا بالرجل الذي يدخل الخاتم في البنصر من أصابعه، وتقول: "إن الرجل الفلوبي الحقيقي يجب أن تكون أطرافه ناعمة وأصابعه لطيفة".

في اليوم التالي، وكما في كل الأيام، تجمع صفوة من شباب الفلوبيس أمام بيت حمّادي آردو، فخرجت ابنة الملك الصغرى الفاتنة الجمال من البيت، وسحبت الخاتم الفضي من بنصرها، ثم بحثت بين الرجال الحضور عمن يدخل الخاتم في بنصره.

تمكن بعضهم من إدخاله بصعوبة حتى العقدة الأولى من الإصبع، وبعضهم أوصله إلى العقدة الثانية، لكن أياً منهم لم يتمكن من إدخاله كلياً، عندها فقد الملك حمّادي آردو صبره وقال لابنته: "عليك بالزواج من أيّ من الحضور".

الحداد الذي كان يشتغل عنده غوربو ديكي سمع تلك الكلمات وقال:

"في بيتي يعمل رجل ملابسه رثة، لكن علامات الفلوبيس تبدو واضحة عليه".

– "احضر الرجل لي – قال الملك – وليجرب خاتم ابنتي".

ذهب الحداد ليحضر غوربو وقال له: "تعال حالاً! الملك يريد التحدث معك".

ذهب غوربو بملابسه الرثة مع الحداد إلى الساحة، حيث كان هناك الملك حمّادي آردو وجميع الشخصيات المعتبرة.

سأله حمّادي آردو: "هل أنت فلوبيس؟".

أجاب غوربو: "نعم أنا فلوبي".

– "ما اسمك؟".

أجاب غوربو ديكي: "لا أقدر على ذكره".

فقال الملك: "جرب إدخال هذا الخاتم في البنصر من أصابع يدك".

أخذ غوربو الخاتم، وأدخله في إصبعه فاستقر الخاتم بسهولة.

– "أنت من سيتزوج من ابنتي" – قال الملك– فأخذت "كودي آردو" تبكي، ثم قالت:

"لا أريد الزواج من هذا الفلاح، من هذا الرجل البشع والقذر، وبقيت كودي تبكي طوال النهار، لكنها اضطرت أخيراً للزواج من الرجل البشع والقذر، وأقيمت مراسيم الزواج.

في أحد الأيام حدثت حرب بين الملك والطوارق، وتمكن الطوارق من الاستيلاء على ماشية الملك حمّادي ومواشي مدينة ساريام.

تسلح جميع سكان المدينة، وخرجوا خلف الطوارق، بينما غوربو كان جالساً في إحدى زوايا المدينة، فقال الملك له:

"ألا تريد أن تمتطي حصانا وتأتي معنا إلى الحرب؟".

– "أن امتطي حصانا! أنا لم أركب حصاناً في حياتي، أنا ابن ناس فقراء، وإذا أعطيتموني جحشاً فربما أقدر على ركوبه". فصارت "كودي آردو" تبكي.

ركب غوربو على الجحش، وذهب باتجاهٍ معاكسٍ لوجهة المحاربين، فقالت "كودي" وهي تبكي:

"آه ! يا أبتي! آه! يا أبتي! أي حظ تعس جلبته لي من تزويجك لي من هذا الرجل؟".

لقد ذهب غوربو ديكي إلى بيت الفلاح الذي كان قد ترك خيله هناك، وسلاحه ودرعه، قفز عن الجحش وقال:

" يا ألآل! لقد تزوجت".

– "ماذا؟ تزوجت؟! ممن تزوجت؟".

– "تزوجت أجمل نساء المدينة؛ إنها ابنة الملك حمّادي آردو".

– "ماذا؟! كيف حصلت على هذا الحظ الكبير؟".

– "نعم!– قال غوربو – لكن يوجد هناك شيء آخر، لقد سطا الطوارق على ماشية حمادي، فبسرعة البس وتسلح واسرج الخيل، عليَّ أن أتقدمَ الجميع، واختصرَ الطريق".

فحضّر المدرّع كلّ شيء وسأله: "هل يمكنني مرافقتك؟".

قال غروبو ديكي: "لا! ليس اليوم".

وانطلق بسرعة كبيرة حتى تمكن من اللحاق بهم فشاهده اثنان من أنسباء الملك حمّادي، وشاهده جميع الفلوبيس وهو على حصانه السريع، يقطع الحقول المجاورة فقال نسيب للنسيب الآخر:

"يبدو إنه "تشينار المستبد"، وسيكون لصالحنا لو يقف إلى جانبنا فنفوز بالمعركة، علينا أن نتحدث معه.

واتجه عدد من المحاربين نحو غوربو وسألوه: "إلى أين تذهب؟ ما هو غرضك؟".

– "أذهبُ إلى حيث تكون هناك حرب، وأساعد من يحلو لي".

– "أنت! ألستَ أنت تشينار؟!".

– "نعم، أنا تشينار".

– "هل تريد مساعدتنا؟".

– "كم عدد أنسباء الملك الذين يسيرون معكم؟".

– "اثنان".

– "إذا دفع كل واحد منهما أذنه لي فسوف أساعدكم".

– "هذا ليس ممكناً! ماذا سيقال في المدينة؟".

– "إنه بسيط جداً– قال غوربو– فليقولوا إنهم فقدوها في المعركة، فهذا يحدث عادة، وكذلك لأشرف الناس".

مضى الرجال على خيولهم نحو المكان الذي يتجمع فيه الآخرون، وقصّوا ما سمعوه على نسيبي الملك.

في البداية لم يوافقا، وفيما بعد وافقا على أن تقطع أذناً واحدة من كل واحد منهم، وبعثوا بهما إلى غوربو.

خبّأ غوربو الأذنين في جيبه، وتقدم إلى رأس القوات وهو يقول:

"لا تقولوا إن "تشينار" قد ساعدكم".

– "لا! لا! لا لن نقول"، أجاب الفلوبيس.

لحقوا بالطوارق، وتحاربوا معهم، فربح الفلوبيس الحرب، ابتعد غوربو، ومضى على خيله نحو بيت الفلاح الذي يختبئ عنده رجله المدرع، وهناك ترجل عن الحصان، وخلع ملابسه والسلاح، وارتدى الملابس الرثة، وركب الجحش وعاد إلى المدينة.

وفي طريقه إلى هناك، وفي طرقات ساریاما رآه الحداد الذي أمّن له المأوى في اليوم الأول، فقال له:

"لا تدق باب بيتي! أنت لست فلوبيس! أنت زنديق! أو عبد! أنت لست محارباً ولا فلوبياً!".

وفي الأثناء عاد الفلوبيس مبتهجين منتصرين، ومعهم القطعان التي استردوها، وقد خرج الناس سعداء ليحيوهم، وكذلك خرج الملك لاستقبالهم، وقال:

"لا يزال هنا محاربون شجعان، لا يزال هنا فلوبيس، هل عاد الجرحى؟".

أحد نسائب الملك قال: "عندما انطلقت إلى المعركة واجهني أحد الطوارق، وكان ضخماً جداً فضربني بسيفه، فأبعدت رأسي فقطع السيف أذني، وبفضل ذلك فإنني قد نجوت".

قال الصهر الثاني:

"عندما كنت أهاجم في الجانب الآخر أحد الطوارق، وكان قصيراً، فسارعني من الأسفل بطعنة من سيفه الطويل على عنقي، وكاد أن يقطع رأسي، لكنني انحنيت فاخذ أذني".

قال الملك حمّادي:

"إن سماع مثل هذه الأمور يفرح الروح، أنتم أبطال، لكن قولوا لي: ألم تشاهدوا صهري الثالث؟".

– "آه! ذاك! منذ البداية اتخذ اتجاهاً معاكساً. قال الجميع ذلك وهم يهزأون.

وفي هذه اللحظة كان غوربو يأتي من الجانب الثاني، يركب على الجحش، وعندما اقترب منهم، سرّح الدابة فراحت تخبب.

وعند رؤيته قادماً بهذه الهيئة المسيئة بدأت كودي بالبكاء بمرارة، وهي تقول:

"يا أبتي! يا أبتي! أية تعاسة جلبتها لي!".

خلال الاحتفال كان صفوة الفلوبيس يجلسون على شكل دائرة، يروون ما فعلوه، فسمعهم "غوربو" من إحدى الزوايا، فقال أحدهم:

"عندما جندلت أول واحد على مرأى من الأعداء ...".

وقال الثاني: "عندما استوليت على الخيول ...".

وقال ثالث: "نعم، فأنتم لستم مثل زوج كودي آردو، فأنتم أبطال بحق وحقيق".

كان النسيبان الاثنان يكرران الرواية نفسها عن فقدانهما أذنيهما في المعركة. وكان غوربو هناك في الجانب يستمع إلى كل شيء، وفي جيبه كانت الأذنان.

وعندما حلّ الليل ذهب إلى البيت، فقالت كوردي له: "أنت جبان!".

في اليوم التالي هاجم الطوارق المدينة بأعداد كبيرة، وعند مشاهدتهم من بعيد اجتمع كل رجال المدينة القادرين على حمل السلاح، وركب غوربو الجحش، ثم انسل خفية من المدينة، فأخذت الناس تصيح: "انظروا إلى هناك! إلى نسيب الملك! كيف يهرب نسيب الملك؟".

وبدأت كوردي تبكي وتقول: "يا أبتي! يا أبتي! أية تعاسة جلبت لي!".

ذهب غوربو إلى بيت الفلاح الذي ترك ملابسه عنده وحصانه وسلاحه، وعندما وصل قفز عن الجحش وقال لرجله المدرع:

"بسرعة! بسرعة! هيئ لي خيلي وأشيائي، فاليوم هناك تطورات مهمة، لقد هاجم الطوارق المدينة بأعداد كبيرة جداً، ولا يوجد هناك من يعرف كيف يصدهم".

– "وهل يمكنني مرافقتك؟". سأل الآل.

قال غوربو ديكي: "لا، ليس اليوم".

ارتدى ثيابه الجيدة، وأخذ سلاحه، ووثب إلى حصانه، وانطلق على وقع الحوافر القوية والسريعة.

في الأثناء كان الطوارق قد اقتربوا كثيراً، وهاجموا المدينة حتى أنهم تمكنوا من دخولها، وقسم منهم تقدم باتجاه قصر الملك.

وصل غوربو في الوقت المناسب، اخترق صفوف الطوارق يضرب بسيفه يميناً وشمالاً. لقد وصل في اللحظة الحاسمة إلى قصر حماه.

في تلك اللحظة، كان بعض الطوارق يحاصرون كودي آردو، يريدون سبيها، وعندما رأت كودي آردو الفارس الفولبي الشجاع يصل، استغاثت بصوت عال:

"يا أخي العظيم! تعال وخلصني! لقد فرّ زوجي بجبن وخسة".

وبرمح طويل أبعد غوربو أحد الطوارق، وجرح طوارقياً آخر، لكن أحدهم تمكن من جرحه قبل أن يفروا جميعهم، وعندما رأت كودي آردو الجرح البالغ والخطير صاحت: "أواه أيها الأخ العظيم! لقد أنقذتني، لكنك أصبت".

مزقت نصف ثوبها، وربطت بالقماش فخذه النازف.

وفي الحال خرج غوربو من هناك وهجم على الطوارق، يضربهم بسيفه في كل الاتجاهات، ويجعلهم يفرّون، عندها خرج الفلوبيس يلاحقونهم، لكن غوربو ذهب إلى بيت الفلاح، حيث هناك رجله المدرع ألآل، وهناك ربط الحصان وخلع ملابسه وسلاحه، ثم ارتدى ملابسه الرثة، وعاد إلى المدينة وهو يركب الجحش.

وعندما رآه الحداد الذي كان قد استقبله أول مرة من قبل صاح به:

"انظروا إلى هذا البائس! الزنديق! هذا الكلب الأجرب! هذا الجبان! هيا أسرع بالمرور من جانب بيتي!".

فقال غوربو: "ماذا تريد؟ منذ أن جئت إلى هنا وأنا أقول إنني ابن ناسٍ فقراء".

وبعد أن قال ذلك، سرّح الجحش واتجه إلي الساحة الكبيرة، حيث

كان هناك عدد كبير من الفلوبيس مجتمعين في مجلس الملك حمّادي، يتحدثون عما جرى ذلك اليوم وكانت كودي بينهم.

عندما وصل غوربو بهيئته البائسة، بدأت كودي تبكي وتقول: "آه يا أبتي ... آه يا أبتي ... أية تعاسة جلبت لي! فلقد كان من بين الفلوبيس رجال أكثر شجاعة وفروسية".

فقال غوربو:

"منذ اليوم الأول لزواجنا قلت لك: إنني ابن ناسٍ فقراء، وقلت لأبيك: إنني لا أفهم في الخيول ولا في الحروب".

فأخذت كودي تبكي وتقول: "جبان! بائس! خوّاف!".

وجلس غوربو غير مبالٍ في إحدى الزوايا.

حلّ الليل وذهب الفلوبيس إلى بيوتهم، ولم تقدر كودي على النوم، كانت تفكر في زوجها الجبان وفي الفارس الشجاع الذي أنقذها، وفي منتصف الليل نظرت إلى مكان نوم زوجها، فشاهدت آثار دماء، كانت تنزّ من ربطة على فخذه، والربطة كانت قطعة من ثوبها الذي مزقته من أجل إسعافً الفارس الشجاع.

كانت الربطة مشدودة على فخذ زوجها الذي عاد راكباً على الجحش، فنهضت كودي وسألت زوجها: "قل لي: من أين جاءك هذا الجرح؟".

فرد عليها غوربو: "خمّني".

فسألت كودي: "من قصّ الثوبَ لربط جرحك؟".

قال غوربو: "خمّني".

فسألت كودي: "من تكون أنت؟".

فقال غوربو: "ابن أحد الملوك، لكن لا تقولي شيئاً الآن، قومي وحضّري زبدة لتضعيها على جراحي".

أحضرت كودي الزبدة، وسخنتها ثم صبّتها على الجرح وربطتها، وبعدها خرجت لترى أمها، فجلست إلى جوارها، وبدأت تبكي وتقول:

"زوجي ليس جباناً، لم يهرب، إنه الرجل الذي أنقذ اليوم المدينة من الطوارق، لكن لا تقولي ذلك لأحد". وانسلت بصمت.

في اليوم التالي عاد غوربو يركب الجحش، وذهب إلى بيت الفلاح الذي ترك فيه رجله المدرع وأسلحته وثيابه وحصانه.

– "الآل! قال لرجله المدرع، لقد حل اليوم الذي علينا فيه أن نقدم أنفسنا إلى ساريام وإلى الملك العظيم حمّادي، اسرج خيلي وخيلك أيضا".

وارتدى غوربو ثيابه الفارهة، وأخذ سلاحه، ودخل ساريام ممتطياً حصانه يتبعه الرجل المدرع.

توقف في الساحة الكبيرة، حيث كانت أعداد من الفلوبيس مجتمعين. غرس المدرّع قطعتين رائعتين من الفضة ليربط بهما رسن الخيل.

نادى غوربو على زوجته التي جاءت في الحال وحيّاها مبتسماً، وبعدها اتجه نحو الفلوبيس وقال:

أنا غوربو ديكي وهذه زوجتي كودي آردو، أنا ابن أحد الملوك، أنا من هزم الطوارق البارحة وأول البارحة.

– "لا أصدق ذلك". قال الملك.

فرد عليه غوربو: "اسأل من كان معي في القتال".

فقال الجميع: "هل هذا صحيح؟ لقد رأيناك تفرّ دائماً على الجحش".

لكن نسيبي الملك فقط هما اللذان قالا: "لسنا متأكدين".

عندها أخرج غوربو الأذنين من جيوبه، وقال: "هل تعرفون هاتين الأذنين؟".

اخفض الاثنان رأسيهما ولم يقولا كلمة واحدة.

اقترب الملك من غوربو، وركع أمامه قائلا: "اعذرني، وهاك المُلكُ من يدي". فقال غوربو:

"أيها الملك حمّادي آردو، أنا لست أقل منك، أنا أيضاً ابن عائلة من الآردو، وبما أنني أصبحت ملكاً، فإنني آمر بإحضار الحدّاد الذي هزّأني وسخر مني لمرات عدة. آمر أن يجلد مائة سوط على إليته.

وهذا ما حصل.

دان – أوتا

هذه إحدى الحكايات التي يرويها كبار السن في ليالي الشتاء حول مواقد النار عند القبائل في أراضي مالي الشاسعة.

قبل سنين بعيدة، في وقت ألقى الزمان به من وراء ظهره، تزوج رجل من امرأة، وذهبا وحيدين إلى الغابة، وهناك زرعا الأرض واستخرجا منها ما يكفي حاجتهما، وبعد انقضاء سنة ولدت لهما ابنة أسمياها "سارا"، واستمرا وحيدين، وعندما أصبحت "سارا" شابةً، جاءهما طفلٌ آخر أسمياه "دان–أوتا".

وبعد فترة، مرض الأب فقال لنفسه: "إنني أموت". ونادى على ابنته سارا وقال لها:

"يبقى دان – أوتا معك، لا تتركيه، وفوق كل شيء اعملي على أن لا يبكي دان أوتا أبداً". وما أن قال الأب ذلك حتى مات.

وبعد فترة، مرضت الأم، وقالت لنفسها: "إنني أموت". ونادت سارا وقالت أمها لها:

"ليبقى دان أوتا معك، لا تتركيه، وفوق أي شيء إياك أن يبكي أبداً". وماتت الأم بعد أن قالت ذلك.

بقي الطفلان وحيدين في الغابة، وكان قد تبقى لهما مخزون قليل من الذرة، ومن الطحين المستخرج من شجرة الخبز ومن الفاصولياء الناشفة، فقالت سارا: "بهذا لدينا ما يكفينا، لنأكل إلى أن يصبح دان أوتا رجلاً ويمكنه زراعة الأرض".

وبدأت سارا تطحن الذرة لتحضّر الطعام، وعندما أصبحت الذرة طحيناً وضعته في إحدى القرعات، وأخذته إلى الكوخ لتخبزه، وبعدها خرجت لتبحث عن الحطب، وقد تركت دان أوتا وحيداً يحبو على الأرض، وبالكاد يحاول الوقوف على قدميه، وعندما شعر أوتا بالملل اقترب من القرعة، فقلبها، وأخذ جمرة من الموقد، وخلطها بالطحين. عندما عادت سارا ورأت ما فعله دان أوتا صرخت:

"أي! يا أخي دان أوتا ماذا فعلت؟! لقد أتلفت طحين طعامنا اليوم!".

فبدأ دان أوتا بالبكاء، لكن سارا قالت في الحال: "لا! لا تبكِ يا دان أوتا، فأبوك وأمّك قالا لي ألاّ أدعك تبكي أبداً".

عادت سارا للخروج، وعاد دان إلى الملل. وعندما رأى الجمرات تتوهج أخذ دان واحدة منها، وزحف خارج الكوخ، فأشعل النار في مخزون الذرة وفي طحين شجرة الخبز والفاصولياء، عندها وصلت سارا ورأت كلّ شيء، وقد أكلته النار فصرخت:

"أي! يا أخي دان! ماذا فعلت؟ لقد حرقت كلّ شيء كان عندنا لنأكله! كيف سنعيش الآن؟".

وعندما سمعها دان، بدأ بالبكاء، لكن سارا قالت له بسرعة: "يا أخي دان أوتا لا تبكِ لقد أوصاني أبوك وأمك ألاّ تبكي أبداً، وها أنت قد أحرقت كل ما كان عندنا، لا بأس، تعال لنرى ماذا نفعل لنأكل".

وضعت سارا دان على ظهرها، وربطته بثوبها وانطلقت نحو الغابة، فعثرت على طريق مشت فيه حتى وصلت إلى إحدى المدن، فوجدت نفسها في حي الملك، وهناك استقبلتهما الزوجة الأولى للملك، وأبقتهما ليسكنا معها، وصارت تقدم لهما الطعام يومياً.

كانت سارا دائماً تحمل دان أوتا على ظهرها، فأخذت النساء الأخريات يسألنها:

"سارا، لماذا تحملين دان على ظهرك دائماً؟ لماذا لا تضعيه على الأرض وتتركيه يلعب مع الأطفال الآخرين؟".

فأجابت سارا: "دعوني وحالي، فإن أبي وأمي أوصياني ألاّ يبكي أبداً، وعندما أحمله على ظهري فإنه لا يبكي، عليّ أن أحرص ألاّ يبكي".

لكن دان أوتا في يوم من الأيام قال لسارا: "أريد أن ألعب مع ابن الملك".

فوضعته سارا على الأرض، وأخذ دان يلعب مع ابن الملك، تناولت سارا جرّة وخرجت لتبحث عن الماء، وفي الأثناء أخذ ابن الملك غصنًا فأخذ دان غصناً أخر وبدأ الاثنان يلعبان بالأعواد، فقلع دان إحدى عيني ابن الملك الذي ارتمى سريعاً على الأرض.

في هذه اللحظة كانت سارا قد وصلت، ورأت دان وقد اقتلع عين ابن الملك. لم يكن أحدٌ هناك، لكن ابن الملك بدأ يصرخ، فتركت سارا الجرّة، وأخذت دان اوتا وخرجت من حي الملك، ومن ثم خرجت من المدينة كلها بما أمكنها من عجلة.

لم يكن أحدٌ موجوداً عندما اقتلع دان عين ابن الملك، لكن الطفل استمر بالبكاء والصراخ فسمعه الملك وسأل:

"لماذا يبكي ابني؟".

خرجت نساؤه ليرين ماذا حدث، وعندما لاحظن المصيبة، أخذن بالصراخ فسمع الملك صرخات زوجاته الأربعين، فهرع إلى المكان.

– "ما هذا؟ من فعل ذلك؟". سأل الملك. فأجابه ابنه: "إنه دان أوتا".

قال الملك لحراسه: "اخرجوا، اذهبوا في كل أرجاء المدينة، ابحثوا عن سارا ودان أوتا".

انطلق الحراس وبحثوا في كل بيت، لكنهم لم يجدوا ضالتهم، فجمع الملك كل ناسه وكل جنوده المشاة والخيالة وقال لهم:

"لقد هربت سارا ومعها أخوها دان أوتا من المدينة، فابحثوا عنهما في الغابة، وأنا سأذهب بنفسي مع الخيالة للبحث عنهما".

لقد مضى يومان متتاليان على سارا وهي تمشي، ودان أوتا على ظهرها، ولم تقوَ بعد، لكنها رأت من بعيد الملك وجنوده قادمين، وكان بالقرب منها شجرة ضخمة، فقالت سارا لنفسها:

"سأصعد هذه الشجرة، وهكذا يمكنني الاختباء بين أوراقها".

وصعدت إلى الشجرة يرافقها دان على ظهرها، واختبآ بين الخضرة الكثيفة، وبعد قليل وصل الملك وجنوده إلى الشجرة فقال الملك:

"لقد امتطيت خيلي ليومين وأنا متعب، ضعوا كرسيّ الخيزران تحت هذه الشجرة، أريد أن أرتاح".

نفّذ الجنود ما أمر به الملك، واسترخى الملك على كرسيه تحت الغصن الذي تجلس عليه سارا ودان أوتا.

تململ دان أوتا، لكنه شاهد الملك في الأسفل فقال: "سارا! سارا!".

– "اسكت يا دان أوتا! اسكت!". فبدأ دان بالبكاء، وأخذت سارا تقول له: "لا تبكِ يا دان أوتا! لا تبكِ فأبوك وأمك قالا لي: ألاّ تبكِ أبداً، فقل ما تشاء".

فقال دان أوتا: "سارا أريد أن "أسوي بيبي"، أن أبول على رأس الملك".

فغضبت سارا وقالت: "أي يا دان أوتا! سوف يقتلنا إذا فعلت ذلك". فبدأ دان بالبكاء.

فقالت سارا له: لا تبكِ، وافعل ما تشاء".

وفعل دان ما يريد، وسقط السائل على رأس الملك، الذي وضع يده على رأسه، وتحسس الشيء الذي سقط على رأسه وقال: "هذا براز!" . فنظر الملك إلى أعلى، ورأى سارا ودان أوتا. فصرخ:

"احضروا الفؤوس، وقصوا الشجرة". فركض رجاله، وجلبوا الفؤوس، وبدأوا يضربون على جذع الشجرة.

أخذت الشجرة تهتز، وازدادت ضرباتهم القوية، فانحنت الشجرة، عندها قالت سارا: "الآن سيقبضون علينا، وسوف يقتلوننا".

في الحال انطلق طائر عملاق فوق الغابة، وجاء ليحطّ على الشجرة التي كانت سارة ودان يختبئان فيها، شاهدت سارا الطير وهو يقترب فقالت:

"يا طائري العملاق إن رجال الملك سيقتلونني أنا ودان أخي، إذا أنت لم تنقذنا".

سمع الطير العملاق ما قالته سارا، فاقترب منها ومن أخيها، فوضعت سارا دان على ظهرها، لكن الشجرة سقطت في الحال، فالتقط الطائر سارا وأخيها وطار بهما عالياً فوق الغابة، واستمر بالتحليق عالياً. نظر دان إلى الطائر، فلاحظ أنه يحرك ذيله كأنه مقود، فتمتع برؤية ذلك، لكنه بعد قليل تململ وقال: "سارا! سارا!".

ردت سارا: "ماذا تريد بعد يا دان أوتا؟". فبدأ دان بالبكاء.

فقالت سارا: "لا تبكِ! لا تبكِ! فأبوك وأمك أوصياني ألاّ تبكي، افعل ما تشاء".

– "أريد أن أضع إصبعي في هذه الفتحة التي تحت ذيل الطائر!".

فقالت سارا: "إذا فعلت ذلك فسيدعنا الطير نهوي، وسوف نموت، لكن لا تبك، وافعل ما يحلو لك". فأدخل دان إصبعه في المكان الذي قال عنه، عندها طوى الطائر جناحيه، فسقطت سارة وهي تحمل دان على ظهرها، وعندما كانا قريبين من الأرض، بدأت رياح قوية تصفر بزوابعها، فرأتها سارا وقالت لها: "أيتها الريح! إننا نسقط، وبعد قليل سنرتطم بالأرض، وسنموت إذا لم تنقذينا".

فوصلت الريح، واختطفت سارا ودان وحملتهما إلى مكان بعيد، ثم ألقت بهما بهدوء على الأرض، فكان ذلك المكان غابة في إقليم بعيد.

تقدمت سارا مع دان في الغابة وعثرت على طريق. ومشت فيه ودان على ظهرها، حتى وصلا إلى مدينة كبيرة وأكبر من كل المدن، يحيط بها سورٌ كبيرٌ وقويّ، وفي الجدار كانت بوابة ضخمة من الحديد، كانت تغلق عند الليل لأنه كل ليلة وبعدما ينقضي النهار بقليل، كان يظهر شبح مخيف يدعونه" دود" (Dod)، كان مرتفعاً مثل البغل، لكنه لم يكن بغلاً، وكان طويلاً مثل أفعى ضخمة، لكنه لم يكن أفعى، كان قوياً مثل الفيل، لكنه لم يكن فيلاً، كانت له عينان تتقدان فتضيئان في الليل مثل الشمس في النهار، وكان له ذنب.

كلّ ليلة، كان الدود يزحف باتجاه المدينة، ولهذا السبب أقاموا السور والبوابة الضخمة، ومن تلك البوابة دخلت سارا تحمل دان على ظهرها، وخلف السور مباشرة، وإلى جانب البوابة، كانت تسكن امرأة عجوز، فطلبت سارا منها أن تشفق عليهما، فقبلت العجوز وقالت لهما:

"كلّ ليلة يأتي دود المريع أمام المدينة، ويبدأ بالغناء بصوت قويّ، وإذا ردد أحد غناء الدود فإنه يدخل المدينة، ويقتلنا جميعاً، فاحذري أن يصرخ دان، وهذا هو شرطي الوحيد لاستقبالكما".

سمع دان كلّ شيء، وفي اليوم التالي ذهبت سارا إلى وسط المدينة، لتحضر طعاماً، وفي الأثناء أحضر دان أغصاناً يابسة وقطعاً صغيرة من الخشب، وجدها إلى جانب السور، وبعد ذلك انطلق باتجاه المدينة، وكلما رأى حجراً من "الماكودي" (Makodi)، وهو حجر الصوان الذي يستخدم للجاروشة، كان دان أوتا يأخذه، وهكذا جمع مائة حجر صوان وبعدها قال:

"تبقّى لي بعض الجمر، وتابع في المدينة فرأى بعضها ملقى ومهملاً".

وإلى جانب السور الذي كوّم عنده الحطب، وضع أحجار الماكودي وأخفى الجمرات تحتها. ولم يشعر أحد بفعلته هذه.

في الليل، قالت سارا له: "ادخل بسرعة إلى البيت يا دان أوتا، فـ"دود" المرعب سيأتي بعد قليل، ويمكن أن يقتلنا".

فأجاب دان أوتا: "هذا اليوم أريد أن أبقى في الخارج".

قالت سارا: "ادخل إلى البيت".

وبدأ دان بالبكاء، لكن سارا بسرعة قالت له:

"يا أخي دان أوتا! لا تبكِ! فأبوك وأمك أوصياني ألاّ تبكي، وإذا أردت البقاء خارج البيت، فابق".

دخلت سارا إلى البيت عند العجوز، وبقي دان أوتا في الخارج، يجلس أمام بيت العجوز.

كان كلّ سكان المدينة في بيوتهم، وقد أغلقوا الأبواب عليهم، وكان دان أوتا هو الاستثناء الوحيد، فركض إلى المكان الذي كوّم فيه الحطب، وأشعل فيه النار فصارت أحجار الصوان حمماً متقدة، وفي هذه اللحظة أحس بقدوم الوحش دود، فصعد دان أوتا على السور، وشاهد دود قادماً من بعيد، كانت حدقات عينيه تضيئان مثل الشمس، وسمع دان أوتا دود وهو يغني بصوت قوي ومرعب:

"فواياني أغارينانا ني دود" (vuayanni agarinana ni dod). ومعناها: من يشبهني في هذه المدينة أنا دود.

عندما سمع دان أوتا ذلك، وهو يجلس على الجدار، بدأ بالغناء، وبكل قوته وجه صوته نحو دود:

"ناي ياكاي أغارينانا ناي ياكي ني أوتا (naiyakay agarinana naiyakai ni auta) ومعناها: "أنا أشبهك في هذه المدينة أنا أوتا".

عندما سمع دود ذلك، بدأ يقترب من المدينة، ويقترب، ويقترب، فوصل قريباً جداً، وصار يغني: "من يشبهني في هذه المدينة أنا دود".

وعندما غنى دود ذلك، بدأت الأشجار تهتز في الغابة، والأعشاب اليابسة بدأت تشتعل، لكن أوتا أجابه: "أنا من يشبهك في هذه المدينة، أنا أوتا".

قفز دود عن السور، ونزل أوتا راكضاً، وذهب إلى جانب النار التي أشعلها، فكانت أحجار الصوان تتوهج متقدة.

عندها غنّى الدود ثانية بصوت أكثر رعباً من قبل، فأجابه دان أوتا مرة ثانية، بينما كان الناس في المدينة يرتجفون من شدة الخوف والهلع لسماعهم صوت الشبح المريع.

فاستوحش دود واستشرس كما لم يكن من قبل، وبدأ يردد أغنيته، وعندما فتح فمه وقال:

"فواياني" (vuayanni) من يشبهني .... ". قذفه دان أوتا بأحجار الصوان العشرة، فدخلت إلى حلقه. واستمر دود، يريد إكمال أغنيته وقال:

"في هذه المدينة ..." . عندها قذفه أوتا بعشرة أحجار أخرى، فبلع الصوان المتقد، وهاج، وبصوت منخفض أتمّ المقطع الأخير من أغنيته: "أنا دود".

انتهز دان أوتا فتح الشبح لفكيّه، وأدخل فيها ما تبقى من الصوان المشتعل، فصار الشبح يتلوى، ثمّ سقط على الأرض هامداً. فصعد أوتا إلى الجدار وبدأ يغني بصوته الطفولي: "من يشبهني في هذه المدينة؟ أنا أوتا".

ونزل عن السور، وأخذ سكيناً كان قد أخرجها من بيت العجوز وأخفاها عن أخته، وبتلك السكين قطع أوتا ذيل الشبح، وأخفاه في مخلاة، ودخل بها إلى غرفة العجوز، حيث انسل إلى فراش سارة ونام.

في صباح اليوم التالي، خرج جميع سكان المدينة من بيوتهم، أمّا أرفعهم شأنا، فلقد ذهبوا للقاء الملك، الذي سألهم: ما هذا الذي جرى في الليلة الماضية؟".

فأجابوه: "لا نعرف، لقد كدنا نموت من الخوف، ولقد جرى الحادث قرب السور والبوابة الحديدية". عندها قال الملك لوزيره المتخصص بشؤون الصيد: "اذهب، وانظر ماذا حصل".

ذهب وزير الصيد إلى المكان، وصعد إلى السور فشاهد دود ميتاً. فعاد راكضاً إلى الملك وقال له: "إنّ رجلاً جباراً قد قتل دود". فأراد الملك رؤية ذلك، وامتطى جواده، وانطلق إلى السور، وهناك رأى الشبح ممدداً وقد فارقته الحياة، فصاح:

"حقاً! لقد مات دود! وقد قُطعَ ذيلها! احضروا لي الرجل الشجاع الذي قتله". أحد الرجال ممن كان يمتلك لبؤة، قام بقتلها وقطع ذيلها، وآخر كان عنده جمل فقد ذبحه وقطع ذيله، وآخر كانت عنده بقرة فذبحها وقطع ذيلها.
وذهب كلّ واحد منهم إلى الملك وأبرز ذيل حيوانه وكأنه ذيل دود، لكن الملك عرف الخديعة فقال: "كلكم مخادعون! ولم تقتلوا دود! فدود لم يقتله رجل من المدينة، أنا والجميع سمعنا صوت طفل". وسأل: "هل يسكن بالقرب من البوابة الحديدية أيّ طفل غريب؟".

فذهب الجنود إلى بيت العجوز وسألوها: "أيتها العجوز! هل يسكن هنا طفل جاء من الغابة؟".

– "يسكن معي سارا وأخوها دان أوتا".

فتوجه الجنود بالسؤال إلى سارا:

"سارا! هل كان أوتا الصغير هو من قتل دود؟".

أجابت سارا: "أنا لا أعرف شيئاً! اسألوه هو!".

– "دان أوتا! هل أنت من قتل دود؟، فالملك يريد أن يعرف ذلك".

لم يجب دان أوتا، إنما أخذ المخلاة وذهب مع الجنود إلى الملك، وهناك فتح المخلاة وأخرج ذيل دود، ثم أبرزه إلى الملك، عندها قال الملك:

"نعم دان أوتا! دان آوتا هو الذي قتل دود المريع".

وقام الملك بمنح مائة زوجة إلى دان أوتا ومائة حصان ومائة عبد ومائة بقرة ومائة ثوب ومائة نعجة ونصف المدينة.